كتابات الرحالة الغربيين عن تحديات الواقع الثقافي لمكة المكرمة

عبد الله بن علي بن أحمد القرني [1]

الملخّص

كان لمكة واقعها الخاص بها أثناء رحلات الرحالة من أوروبا إليها، وكان لاجتماع الناس في الحج مع اختلاف بلدانهم، وتعدّد لغاتهم آثاره الإيجابية، لكن ما كان لهذا الاجتماع المتعدد الأوطان والمشارب والمذاهب أن ينزل مكة خالياً من العديد من موروثاته وعاداته وأخطائه أحياناً، والتي أثرت على الواقع الثقافي في مكة، ومن أهداف البحث: بيان مدى اهتمام الرحالة الغربيين في رحلاتهم إلى مكة بالكتابة عن أبرز التحديات التي كانت تواجهها حينها، والوقوف على أبرز التحديات الداخلية في مكة المكرمة وفق ما رصده الرحالة الغربيون في كتاباتهم، والوقوف على أبرز التحديات الخارجية في مكة المكرمة وفق ما رصده الرحالة الغربيون في كتاباتهم، وقد تم استخدام منهج البحث العلمي الوصفي الذي هو الأنسب للموضوع، ومن نتائج البحث: تمثلت التحديات الثقافية في تلك المشاكل التي واجهها الناس في مكة وتأكد ذلك بتدوين الرحالة لها، كانت الرحلات إلى مكة ذات أهمية بالغة في بيان الحالة الثقافية لمكة، لما حوته من تصوير بديع عن التحديات التي كانت تواجهها مكة آنذاك، يعد القرن العاشر الهجري، وما بعده بداية النشاط والتأليف في كتب الرحلات إلى مكة من لدن الرحالة، الضعف العلمي وانتشار الخرافات والبدع ووجود التصوف وانتشار التسول كان من أبرز التحديات للواقع الثقافي في مكة حينها، ومن توصيات الباحث: يوصي المهتمين والباحثين بإيلاء تاريخ مكة المكرمة الثقافي المزيد من العناية لمختلف المحطات والمراحل المتتابعة،كما يوصي الباحث المؤسسات المعنية بمكة بجمع ما كتب عن واقع مكة في كتب الرحلات، ويوصي الباحث الباحثين من طلاب الدراسات العليا البحث عن كتب الرحالة إلى مكة المكرمة لا سيما الغربيين.

الكلمات المفتاحية: مكة – الرحالة – الرحلات – التحديات – الثقافة.

[1] الأستاذ المساعد في قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، جامعة أم القرى. < aaqrni@uqu.edu.sa >

The challenges of the cultural reality of Makkah Al-Mukarramah in the travel books of Western travelers

Abdullah bin Ali Al-Qarni

Abstract

Mecca had its own reality during the journeys of travelers from Europe to it, The meeting of people in the pilgrimage with different countries, and the multiplicity of their languages had its positive effects, but this meeting of multiple nations, stripes and sects did not have to come to Mecca free of many of its heritages and habits, and sometimes its mistakes that affected the cultural reality in Mecca.Among the research objectives: to show the extent to which Western travelers were interested in their trips to Mecca in writing about the most important challenges they were facing at the time, and to identify the most prominent internal challenges in Makkah Al-Mukarramah, according to what Western travelers observed in their writings, and to stand on the most prominent external challenges in Makkah Al-Mukarramah, according to what Western travelers have observed in their writings, The descriptive scientific research method that is most appropriate for the subject has been used, Among the search results,The cultural challenges were represented in those problems that the people faced in Mecca, and this was confirmed by what the travellers wrote themselves, The trips to Mecca were of great importance in explaining the cultural situation of Mecca, as it contained a wonderful depiction of the challenges that Mecca was facing at that time, The tenth century AH, and beyond, is the beginning of activity and writing in the travel books to Mecca from travelers, Scientific weakness, the spread of superstitions and heresies, the presence of Sufism and the spread of beggary were among the most important challenges to the cultural reality in Makkah at that time, Among the researcher's recommendations: It is recommended to those interested and researchers to pay more attention to the cultural history of Makkah Al-Mukarramah to the various stations and successive stages, The researcher also recommends the institutions concerned with Makkah to collect what was written about the reality of Makkah in travel books The researcher recommends researchers from graduate students, to search for books of travelers to Makkah Al-Mukarramah, especially Westerners, The descriptive scientific research method that is most appropriate for the subject has been used, Among the search results: The cultural challenges were represented in those problems that the people faced in Mecca, and this was confirmed by the travellers writing them down, The trips to Mecca were of great importance in explaining the cultural situation of Mecca, as it contained a wonderful depiction of the challenges that Mecca was facing at the time, The tenth century AH, and beyond, is the beginning of activity and writing in the travel books to Mecca from travelers.

Keywords: Mecca - backpackers - trips - challenges - culture

المقدمة:

شرف الله مكة المكرمة بأن جعل فيها البيت الحرام الذي جعله مثابةً للناس وأمناً، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾[سورة البقرة: 12] فجعله محلاً تشتاق له الأرواح وتحن إليه، ولا تقضي منه وطراً، ولو ترددت إليه كلَّ عام.[2] وقد برزت أمام هذه المكانة الكبيرة لمكة في الإسلام وفي نفوس المؤمنين الكثير من التحديات الثقافية، والسياسية، والاقتصادية، والبيئية، والصحية، كانت معالجتها في بعض العصور أقل من المؤمل، كما أن بعضها قد تمت معالجته وأصبح في عداد الأخبار بعد مرور السنين عليه. وكان لاجتماع الناس في الحج مع اختلاف بلدانهم، وتعدّد لغاتهم آثاره الإيجابية في إظهار الإسلام بسموه وأخوته، وحرص معتنقيه على استجابة أمر الله لهم بالحج، لكن ما كان لهذا الاجتماع المتعدد الأوطان، والمشارب، والمذاهب أن ينزل مكة خالياً من العديد من مورثاته، وعاداته وأخطائه أحياناً، والتي أثرت على الواقع الثقافي في مكة المكرمة.

والمقصود بالتحديات الثقافية تلك المشاكل التي واجهها الناس في مكة وتأكد لنا ذلك بتدوين الرحالة لها، فكانت تشق على الناس، وتوثر في رفع ورقي المستوى الثقافي في مكة المكرمة. وقد قسمت التحديات الثقافية التي واجهتها مكة إلى قسمين: تحديات مصادرها داخلية، وتحديات مصادرها خارجية.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

1. تكمن أهمية هذا الموضوع من شرف المكان ألا وهو مكة المكرمة بما لها من مكانة رفيعة وقدسية عظيمة لدى عموم المسلمين.
2. وتتمثل أهمية هذا الموضوع في إبراز مدى العناية الفائقة التي حظيت بها مكة المكرمة من جمع كبير من الرحالة الغربيين من مختلف الجنسيات واللغات، اهتماماً لم يكن لغيرها من المدن مثل ما كان وما زال لها.
3. وتكمن أهمية هذا الموضوع في أن الرحلات إلى مكة ذات أهمية بالغة في بيان الحالة الثقافية لمكة، لما حوته من تصوير بديع عن التحديات التي كانت تواجهها مكة آنذاك.
4. إن كتب الرحلات عين على الثقافة والجغرافيا والأدب والفنون، وهي جديرة بالاهتمام لما فيها من الاستقلالية غالباً في وصف المجتمعات وثقافاتها، مما يجعل الباحث في الثقافة يهتم بمضامينا

---

[2] ينظر: ابن كثير، أبو الفداء أحمد بن اسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**، دار طيبة، الطبعة الثانية، 1425هـ، (417/1).

دراسة وتحليلاً.

5. ما تميزت به كتب الرحلات من كونها عيناً كاتبة لأحوال المجتمع المكي، وواقعه الديني والثقافي والاجتماعي، مما يجعل الباحث يهتم بها كمرجع يُستفاد منه في الكشف عن الأحوال الثقافية للمجتمعات.

أهداف البحث:

1. بيان مدى اهتمام الرحالة الغربيين في رحلاتهم إلى مكة بالكتابة عن أبرز التحديات التي كانت تواجهها.
2. الوقوف على أبرز التحديات الداخلية في مكة المكرمة وفق ما رصده الرحالة الغربيون في كتاباتهم.
3. الوقوف على أبرز التحديات الخارجية في مكة المكرمة وفق ما رصده الرحالة الغربيون في كتاباتهم.

إشكالية البحث وتساؤلاته:

كان لمكة واقعها الخاص بها أثناء رحلات الرحالة من أوروبا إليها، والذين اهتموا برصد تحديات ذلك الواقع في كتاباتهم، فهل استوعبوا تحديات ذلك الواقع وصدقوا في وصفه أم افتروا عليه من عندهم؟

حدود البحث:

الحدود المكانية والزمانية: ما سطره الرحالة المستشرقون عن مكة المكرمة من القرن العاشر وحتى القرن الرابع عشر الهجري.

الحدود الموضوعية: يقتصر هذا البحث فقط على بيان تحديات الواقع الثقافي لمكة المكرمة في كتب الرحلات.

منهج البحث:

اعتمدت على منهج البحث الوصفي الذي يعرّف بأنه: "الجمع المتأني والدقيق للسجلات والوثائق المتوفرة ذات العلاقة بموضوع البحث من أدلة وبراهين تبرهن على إجابة أسئلة البحث"[3]، فهو يسعى إلى جمع الحقائق والبيانات عن الظاهرة المدروسة وتفسيرها وتحليلها واستنباط النتائج والدلالات المفيدة التي تؤدي إلى إصدار تعميمات بشأن موضوع الدراسة وكيفية الاستفادة منه في الدعوة إلى الله، وهذا ما حاولت جاهداً تطبيقه في بحثي هذا.

---

[3] صالح العساف، **المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية**، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ١٤١٦هـ، ص: ٢٠٦.

الدراسات السابقة:

لم يقف الباحث على أي دراسة في هذا الموضوع، باستثناء بعض الكتب العامة والتاريخية عن الرحالة الأوروبيين إلى عدة بلدان في العالم الإسلامي، وكذلك ما كُتب عن بعض الرحالة المستشرقين ومغامراتهم في كثير من البلدان، وكلها تم الاستفادة منها كمراجع لهذا البحث. ولعل أقرب دراسة علمية لهذا البحث رسالة مشعل بن نايف الدهاس من جامعة أم القرى في قسم التاريخ بعنوان: الحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة من خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين دراسة تاريخية وحضارية، فهذه الرسالة وغيرها قد اهتمت بجانب الرحلات من الناحية التاريخية، على أنها اقتصرت على الرحالة المشارقة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وهذا افتراق جوهري عن بحثي هذا المتخصص بمدارس الرحالة المستشرقين إلى مكة المكرمة فقط.

تقسيمات البحث:

يتكون البحث مقدمة ومبحثين من عدة مطالب وخاتمة وفهارس وقائمة المراجع مع ملخص عربي وانجليزي.

المبحث الأول: التحديات الداخلية للواقع الثقافي في مكة المكرمة.

المطلب الأول: التحديات الفكرية.

المطلب الثاني: التحديات الاجتماعية.

المطلب الثالث: التحديات الصحية.

المبحث الثاني: التحديات الخارجية للواقع الثقافي في مكة المكرمة.

المطلب الأول: الأعراب.

المطلب الثاني: دخول الثقافة التركية إلى مكة.

المطلب الثالث: الدعوة الإصلاحية النجدية.

المبحث الأول: التحديات الداخلية للواقع الثقافي في مكة المكرمة

تعد التحديات الداخلية الأكثر أثراً على مكة؛ نظراً لسلامتها من عدوان الاستعمار، وبُعدها عن المدن التي أظلم عليها المستعمر، وكان أبرز ما وقع في مكة المكرمة من تحديات وفق ما رصدته كتب الرحلات للرحالة الغربيين، ما يلي:

المطلب الأول: التحديات الفكرية

فلقد كان انتشار مظاهر الجهل في مقابل ازدراء العلم أو عدم سماع أهله، له الأثر في العديد من مظاهر مكة الثقافية، والتي يجدر بها أن تكون رمز العلم، فمنها ابتدأ نزول آيات الحكمة على النبي

الكريم محمد ﷺ، ومع ذلك فقد انتشر بعض ظلام الجهل في واقع مكة الثقافي، وظهرت صور ذلك فيما يلي:

1 – الضعف العلمي بمكة:

يشير "بيرتون" كثيراً إلى حب أهل مكة للمال، وحرصهم عليه، والذي يصل إلى حد الجشع بقدر من التعميم و المبالغة.[4]

كما ينبه "بوركهارت" أن هذا الأمر يتجلى بسبب حرص المكيين على مهنة الطوافة، والتي تجلب المال من الحجاج بالطرق السريعة، وهي التي ساهمت في عزوف المكيين عن طلب العلم، يقول "بوركهارت":" ولا يمكن أن يتوقع المرء أن يزدهر التعليم والعلم في مكان كُرس كل ما فيه للبحث عن الكسب أو تلمس الطريق إلى الفردوس، وأظن أن لدي من الأسباب ما يجعلني أؤكد أن مكة في الوقت الحاضر أقل درجة بكثير –حتى في مجال التعليم –الديني من أي مدينة أخرى مناظرة لها في عدد السكان، سواء في سوريا أو مصر"[5].

وحتى "سنوك" الذي أنكر على "بوركهارت" حديثه عن ضعف مكة العلمي، عند ذكره لطرق التأليف الفقهي عند علماء مكة، بين أنها عبارة عن تجميع متفرقات لكتب المذهب، وأن العالم لم يأت فيها بجديد، فيقول: "ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه المؤلفات لا يختلف عن غيره إلا في بعض التفصيلات، وفي بعض الإضافات اليسيرة، الأمر الذي لا يثير كبير اهتمام بها"[6]. فالمدراس والأربطة التي أوقفت بمكة، وبعضها تنفق عليها أوقاف من خارج مكة، لازال الكثير منه باقياً بالقرب من المسجد الحرام، غير أنها لا تُستخدم إلا للسكنى وقد خلت من كل مظاهر التعليم.[7]

ويذكر "بوركهارت" في رحلته أنه لا توجد مدرسة حكومية عامة واحدة في مكة كما في المناطق الأخرى للدولة العثمانية، ومن تكون لديه رغبة جامحة في التعلم من أهل مكة فهو يتخذ طريقه إلى دمشق والقاهرة للدراسة.[8]

2– انتشار الخرافات والبدع في مكة:

كانت الخرافات والبدع تسود الجزيرة العربية حينها بما فيها مكة التي لم تسلم من ذلك، مع أنها كانت محط العديد من العلماء وطلابهم الذين كانوا ينشرون السنة ويحاربون البدعة، خصوصاً خلال

---

[4] ينظر: **رحلة بيرتون**، (108/3).

[5] بوركهارت، بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (179)،(194). وينظر: **رحلة بيرتون**، (95/3).

[6] هورخرونيه، هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، (547/2).

[7] بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (194).

[8] ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (195-194).

نشاطهم العلمي ودروسهم في الحرم، إلاَّ أنه يقابل نشاطهم هذا وجود كثير من المشاهد والقباب على القبور، والتي أضحى لها في مكة قدرٌ وزيارة مقدسة، وبعضها في أيام معلومة من السنة، كما يُقدم عند بعضها النذور، وكل ذلك ممّا هو مخالف للإسلام، والتي جاءت النصوص الصريحة عن النبي الكريم- عليه الصلاة والسلام- بخلاف ذلك كما في قوله: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[9].

ويشير "سنوك" إلى أن زيارات القبور والأضرحة المقدسة أمراً مألوفاً، والتقديس الزائف للموتى زاد ازدياداً واضحاً مع مرور الزمن، ومنذ بداية الحكم التركي أصبحت القباب المقامة على ضريح خديجة أم المؤمنين وآمنة أمُّ النبي ﷺ في المعلاة من أكثر المقدسات قيمة في مكة، أمَّا القباب المقامة على قبور الأولياء، والصوفيين، والأشراف سواء في مقبرة المعلاة، أم مقبرة الشبيكة، أو على جوانب الشوارع والطرقات فهي أكثر من أن تُحصى.[10]

ويؤكد ذلك الرحالة "بوركهارت" حتى أن بعض المناطق في مكة تسمى باسم قبر الولي الذي دُفن في محيطها، كما هو الحال في سهل الشيخ محمود، والذي بُني في وسطه قبة مبنية على قبر ولي يحمل هذا الاسم.[11] أما الرحالة "آرثر جون" فيذكر أن قبر أبي طالب الذي مات على الكفر بني على موضعه الذي قيل أنه قبره قبة في مكة، ويقرأ عنده سورة الفاتحة.[12]

وفي بعض الأماكن التي يقصدها الحجاج كمكان مولد النبي ﷺ والذي بني في موضعه غرفة وجُعل لها قبة، يزورها الناس ويدفعون الأموال للأمناء عليها، وبقي الحال على ذلك حتى أُبطل كل ذلك لاحقاً من خلال دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وطلابه بالتعاون مع حكام آل سعود لاسيما الدولة الأولى ثم الثالثة، فهدموا القبة، ومنعوا الأمناء عن دخول المكان، كما أزالوا كل القباب التي وضعت على بعض القبور المشهورة في مكة، كما بين ذلك "إلدون رتر". [13]

ويستمر هذا الأمر مع الحجاج حتى في حين خروجهم من مكة متوجهين لبلادهم إذ تقف بعض

---

[9] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور،(2/ 88[1330])، مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، **صحيح الإمام مسلم**، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي، دار احياء التراث العربي ،كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد، على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، (376/1[529]).

[10] ينظر: هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، (119/1).

[11] ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (61).

[12] ينظر: وافل، آرثر جون وافل، **رحلة الحاج المعاصر إلى مكة**، (166).

[13] ينظر: رتر، إلدون رتر، مدينتا الجزيرة العربية المقدستان، (329/1)، (332/1). وينظر: وافل، آرثر جون وافل، رحلة الحاج المعاصر إلى مكة، (166).

السفن عند جزيرة في عرض البحر بها قبر ولي يقال له الشيخ مرغوب، يصله آلاف الحجاج لولاية صاحب القبر، كما رأى ذلك الرحالة " بيتس" و"علي باي العباسي".[14]

وما ذكره الرحالة من وجود تلك البدع والتي تصل في بعضها إلى الشرك قد سهّل أمرها على الحجاج، بل أسهم في نشرها، فينقلونها بعد ذلك إلى بلادهم، وهل كانت عبادة الأصنام إلا مجلوبة من الشام إلى جزيرة العرب، ومغيرة لدين إبراهيم الخليل — عليه السلام–.

وقد بين "سنوك" في رحلته أن الزيارة لبعض القبور أضحت لها أوقات معلومة في السنة يتم الاحتفال فيها، وتخصيصها للزيارة، وبعضها يحرص النساء على أن يشهدوها، حتى وصل الأمر بالاعتقاد بأن من تُزار قبورهم يشهدون بالإسلام لزوارهم يوم القيامة.[15]

ويفصل "سنوك" في بيانه عن ذلك فيذكر أنه في بداية شهر صفر يقوم المكيون بالتحضير والاستعداد للاحتفالات الخاصة بالذكرى السنوية لوفاة أم المؤمنين ميمونة — رضي الله عنها –، وفي منطقة العمرة بمكة بجانب التنعيم يكون الاحتفال بالذكر السنوية في الرابع عشر من شهر صفر لوفاة الصحابي الجليل عبد الله بن عمر الذي عاش شطراً من حياته في ذلك الموضع.[16]

وفي الثاني عشر من ربيع الأول يقيم أهل مكة الاحتفال بذكرى المولد النبوي، وبهذه المناسبة يقوم المدرسون في الحرم بقراءة المولد بدلاً من إعطاء الدروس والمحاضرات، وتُطلق المدافع من ظهر ذلك اليوم إعلاناً لهذه المناسبة، ومن صلاة المغرب يتجمع الناس بأعداد كبيرة في المسجد الحرام بملابس العيد ومعهم النساء، وتتحلّى النساء وتأخذ زينتهنّ، وتفتح المحلات التجارية أبوابها بألعاب العيد وأغراضه، ويجلس الإمام على منصة خشبية متوجهاً بظهره للكعبة ومواجهاً للجمهور ليتلو قصة المولد، وفي هذا المجمع يحضر الشريف والوالي التركي مع حاشيتهما، ويبدأ الإمام بقراءة قصة المولد، ويطلق السكان على هذه المناسبة اسم العيد؛ تشبيهاً لها بعيد الفطر والأضحى.[17]

كما يقيم أهل مكة احتفالات أخرى بمثل الاحتفال بذكر الشيخ محمود الأدهم المشهور في التراث الديني لسكان جزر الهند الشرقية، فيُقرأ عند القبر الفاتحة، وهذه الزيارة مخصصة للنساء وتستمر لمدة ثلاثة أيام.[18]

وفي الحادي عشر من كل شهر هناك مناسبتان يحتفل الناس بهما كل شهر، إذ يتجمع العديد من

---

14 علي باي العباسي " **مسيحي في مكة**"، (242). وينظر: بيرين، جاكلين بيرين، **اكتشاف الجزيرة العربية**، (74)،(93).

15 ينظر: هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، (364/2).

16 ينظر: المرجع السابق، (391/2).

17 ينظر: هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، (392/2- 394).

18 ينظر: هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، (395/2- 396).

الناس على ضريح السيدة خديجة الذي يحيط به مصلى له قبة كبيرة في المعلاة– كما يقول "سنوك"، أما "بيرتون" فقد رأى قبرها مغطى بقماش أخضر، وقد زُيّن بأبيات من الشعر الديني، كما أن هناك قبة أخرى تغطي قبر آمنة أم النبي ﷺ، أما "بوركهارت" فقد رأى القبر بحالة متدهورة بسبب ما قام به أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من إزالة القباب التي على القبور.[19]

والصحيح أن كلا الضريحين ضريح خديجة أم المؤمنين، وآمنة أم النبي ﷺ قد أقيما منذ فترة حديثة نسبياً، ومن غير الصحيح الجزم بأنهما الموضع الصحيح لقبرهما، فلم يكن يعرف قبر أحد من أصحاب الرسول ﷺ في مكة عند التحقيق سوى قبر أم المؤمنين ميمونة بسرف [20]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: " فإن القبور الصحيحة والمقامات الصحيحة قليلة جداً، وكان غير واحد من أهل العلم يقول : لا يثبت، من قبور الأنبياء إلا قبر نبينا ﷺ، وغيره قد يثبت غير هذا أيضاً مثل: قبر إبراهيم الخليل –عليه السلام–، وقد يكون علم أن القبر في تلك الناحية لكن يقع الشك في عينه، ككثير من قبور الصحابة التي بباب الصغير من دمشق، فإن الأرض غيرت مرات، فتعيين قبر أنه قبر بلال أو غيره لا يكاد يثبت، إلا من طريق خاصة، وإن كان لو ثبت ذلك لم يتعلق به حكم شرعي مما قد أحدث عندها" [21].

وقد بلغ غلو الناس في القبور والمشاهد تقديسهم لشجرة على الطريق المؤدي من جدة إلى مكة، فجعل الناس عليها أنواعاً من الخرق، يزعم بعضهم أن موضعها فوق قبر أحد الصالحين، والبعض يقول أنها شجرة الرضوان، كما ذكر ذلك الرحالة "سنوك".[22]

كما بلغ من انتشار البدع في مكة وكثرة أماكنها في مكة، حتى أن كل ما على من الشجر والحجر كان يتطرق إليه الخرافات، والأحاديث والقصص المكذوبة، حتى قال "جون كين": " ولم تكن لترى أيّ تلة أو نبع ماء في تلك الأماكن لا يُقال أنها كانت أماكن مميزة شهدت أحداثاً كُبرى في حياة آدم وحواء أو إبراهيم أو هاجر أو اسماعيل، أو بعض الشخصيات المقدسة، أما بالنسبة لمحمد فإن الأقاصيص التي نُسجت ولفقت حوله — وهو رجل شريف– ليس لها في الواقع أية علاقة بسيرته الحقيقة

---

19 ينظر: **رحلة بيرتون**، (103/3)، هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، (401/2- 402).

20 سَرِف بفتح السين وكسر الراء قرية تبعد ستة أميال عن مكة، وفيها تزوج النبي ﷺ ميمونة –رضي الله عنها– وفيها توفيت. ينظر: ابن القيم الجوزية، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، (329/3)، ابن حجر العسقلاني، أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **وهداية الساري مقدمة فتح الباري**، دار المعرفة طبعة عام: 1379هـ، (131/1)، محمد بن أحمد المكي الحسني الفاسي، **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، (378/1) .

21 ابن تيمية، شيخ الإسلام ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق: د. ناصر عبدالكريم العقل، طبعة: مكتبة الرشد ، (166/2).

22 ينظر: هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، (401/2- 402، 406).

المكتوبة، بل تمّ إلصاق العديد من الروايات الخرافية بها على ألسنة الناس بغير وجه حق. تسأل أحدهم: لماذا تلتقط هذا الحجر؟ فيرد: آه، لقد قاتل محمد الكفار وأرسل له ملائكة وأحجاراً... وتسأله لماذا تأكل من تلك الشجيرة؟ فيجيب بأنها تدعى خبز محمد"[23].وكل ذلك من الأعمال الباطلة مما لم يأت الدليل بها، وهي بعيدة عن منهج الإسلام في التحذير من تعظيم وتقديس القبور والأولياء.

وبعيداً عن جدل صحة موضع القبر من عدمه لولي أو عبد صالح في مكة، فقد كان تعظيم القبور وبناء القباب عليها، وتقديم النذور لها بقصد شفاء المرضى، أو تحقيق بعض الرغبات وغير ذلك من الأعمال قد نهى الإسلام عنها، فالإسلام جعل لصاحب القبر الزيارة والدعاء بالمغفرة، وحرّم رفعها عن موضعها، أو بناء القباب عليها، أو اتخاذها مساجد، فكل ذلك من أمور الجاهلية، كما قال- عليه الصلاة والسلام-: (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنني أنهاكم عن ذلك).[24]

ويشير "بوركهارت" إلى وجود الكثير من الأعياد التي لم تأتِ بها الشريعة في مكة؛ كذكرى الإسراء والمعراج، وكثرة والمزارات في مكة كموضع مولد النبي ﷺ، وموضع مولد ابنته فاطمة- رضي الله عنها- وسيدنا علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعاً. [25]

على أن تلك المواضع التي عظمت في مكة، ومن أشهرها موضع ولادة النبي ﷺ لم يثبت صحة نسبتها بطرق صحيحة، ومع جزم الناس بتحديد ذلك الموضع إلا أن مجال البحث بالأدلة في ذلك بعيد عن ذلك، حتى قال الرحالة أبو بكر العياشي[26]: "والعجب أنهم عينوا محلاً من الدار مقدار مضجع، وقالوا له: موضع ولادته -عليه السلام-، ويبعد عندي كل البعد تعيين ذلك من طريق صحيح أو ضعيف، لما تقدم من الخلاف في كونه في مكة أو غيرها، وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففي أي الدور؟ وعلى القول بتعيين الدار، يبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار بعد مرور الأزمان، والأعصار، وانقطاع الآثار"[27].

---

[23] كين، جون فراير كين، **ستة أشهر في الحجاز**، (65-66).

[24] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، (377/1[532]).

[25] ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (160-161).

[26] رحالة المغرب العلامة أبو سالم عبدالله بن محمد بن أبي بكر العياشي، والعياشي نسبة إلى آل عياش قبيلة من البربر، (1037هـ-1090هـ)، واشتهر برحلته التي جمعت كثيراً من الفوائد العلمية وكتبها بعد زيارته للحرمين الشريفين. ينظر: الكتاني، محمد عَبْد الحَيّ الكتاني، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات** تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الثانية، 1982م، (833/2).

[27] العياشي، عبد الله بن محمد العياشي، **ماء الموائد**، دار السويدي، الطبعة الأولى 2006م، (225/1).

ويؤكد هذا الأمر الأستاذ حمد الجاسر بقوله: " وهذا الاختلاف في الموضع الذي ولد فيه النبي ﷺ يُحمل على القول بأن الجزم بأنه الموضع المعروف عند عامة الناس باسم المولد لا يقوم على أساس تاريخي صحيح"[28].

ومن البدع الحادثة بناء القباب التي جُعلت حتى على قبور المشركين؛ كقبر أبي طالب، وعبد المطلب، وهي من الأمور التي لا حقيقة لها، ولا تستند إلى دليل على صحة تحديد موضع صاحب القبر، لكن بمرور الزمان، وتعاقب الليل والنهار، وتناقل الناس لها تُصبح من الأمور الثابتة لدى الناس، وحتى لو صحت تاريخياً فإن الإسلام قد نهى عن ذلك الفعل وهو ممّا أنكره النبي ﷺ كما سبق.

وقد بلغ من الشكوى مما أصاب بعض سكان مكة من البدع في البناء على القبور، ما ذكره الرحالة " علي باي" وهو يرى بناء القبر وتعظيمه لمن اشتهر بالصلاح والزهد ولغيره، فيقول: "ومن بين المسلمين هناك من يكسب شهرة إما لصلاحه أو زهده، فيقام له ضريح خاص بعد وفاته، يُزخرف ويُعتنى به، ويبنون حول قبره قبة حيث يرتاده الناس لطلب الشفاعة لهم من الله؛ لأنه يُعد من أوليائه.. لكن الغريب الذي يصعب تفسيره هو ما يحدث باستمرار من أن الناس يتفقون على منح صفة القُدسية لمجنون أو معتوه، ممن يُنظر إليه على أنه مصطفى من قبل الله؛ لأنه قد حرمه العقل، وليس غريباً أن نرى تعظيم ضريح سلطان أو حتى صعلوك اختاره الناس كي يكون ولياً دون أن يعرف هو نفسه لماذا!" [29].

وما ذكره الرحالة هو الحال الذي وصل إليه بعض المسلمين في العصور المتأخرة والله المستعان، وهو من مظاهر الشرك بتقديم بعض العبادة لغيره، فدعاء أصحاب القبور أو تقديم نوع من العبادات لهم شرك، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ [سورة يونس: ١٠٦] , ولم يكن بداية ضلال الأمم السابقة إلا حين غلو في الصالحين، فزين لهم الشيطان عبادتهم ودعاءهم من دون الله عز وجل، فضلوا ضلالاً كبيراً. [30]

وتعظيم القبور بالأضرحة والبناء عليها مما جاء النهي عن في الشريعة الإسلامية، " فالرسول ﷺ هدم وأزال أنواعاً من المعبودات منها الأصنام والمباني والأشجار وغيرها، ولم يقتصر على الأصنام فقط، وكان هدمه لتلك الأوثان بالنظر إلى ما يفعل عندها من أولئك الجهال، ولم يقتصر على ذلك بل أمر بإزال

---

28 مجلة العرب، (مج17/3-4) عدد عام :1982م، صفحة (165) ، وينظر: السيهلي، عبدالرحمن السيهلي، **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1421هـ، (99/1).

29 باديا، دمنجو باديا، **رحالة أسباني في الجزيرة العربية**، (285-284).

30 ينظر: الحكمي، حافظ الحكمي، **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد**، تحقيق: عمر محمود، دار ابن القيم، الطبعة الثالثة، 1415هـ، (524/2-523).

أسباب الشرك، وقطع الطرق الموصلة إلى الشرك فأمر بكسر التماثيل، وطمس الصور، وتسوية القبور إذا لم تعبد، فكيف إذا عبدت"[31].

فكل موضع لم يعظمه الوحي لا يجوز أن تكون فيه أي عبادة، وأن يعظم ويزار تعبداً، أو طلباً للبركة أو الشفاء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "فهذه البقاع التي يعتقد لها خصيصة كائنة ما كانت فإن تعظيم مكان لم يعظمه الشرع شرٌّ من تعظيم زمان لم يعظمه، فإن تعظيم الأجسام بالعبادة عندها أقرب إلى عبادة الأوثان من تعظيم الزمان، حتى أن الذي ينبغي تجنب الصلاة فيها، وإن كان المصلي لا يقصد تعظيمها؛ لئلا يكون ذلك ذريعة إلى تخصيصها بالصلاة فيها.. وهذه المشاهد الباطلة إنما وضعت مضاهاة لبيوت الله، وتعظيماً لما لم يعظمه الله، وعكوفاً على أشياء لا تنفع ولا تضر، وصداً للخلق على سبيل الله وهي عبادته وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله –ﷺ–تسليماً، واتخاذها عيداً هو الاجتماع عندها واعتياد قصدها، فإن العيد من المعاودة" [32].

ومن البدع التي طال أمدها في مكة بدعة المحمل الذي يرسل سنوياً إلى مكة من مصر والشام وقديماً من اليمن، وهو صندوق قياسه خمسة أقدام في كل الاتجاهات الثلاثة، مصنوع من هيكل خشبي، يغطى بقماش أحمر مطرزاً تطريزاً ثميناً، ويعلوه غطاء قمعي الشكل كالخيمة من المواد نفسها، وفي رأس الغطاء وفي كل ركن من أركانه زينة من الفضة المذهبة يعلوها هلال، ويحمل فوق الجمل الذي يحمله إلى مكة، وهذا هو وصف المحمل المصري وهناك محامل أخرى ترسل إلى مكة محملة بالهدايا للحرمين وساكنيها من السلطان ومن الأمراء، وقد أصبح المحمل رمز سيادة الدولة على الحجاز.[33] فكان الاحتفال بالمحمل والكسوة أمراً ظاهراً مشهوراً، وترمز إلى السيادة على الحجاز، ومن المعلوم أن سنة المحمل وما يصحبها من البدع والاحتفالات ليس من الدين في شيء،" إذ المحامل وما يتعلق بها كلها، وكذا الاحتفال بالكسوة، وكسوة المقام والحجرة، كلها مبتدعة في عصور متأخرة"[34].

3- وجود الصوفية:

والمقصود بها التي انتهجت فكراً غالياً في البدع، والبعد عن الشريعة الإسلامية، وليس المقصود بها التي قصدت الزهد في الدنيا، والتخفف من متاعها، فالتصوف بدأ زهداً وعبادة ونسكاً، ثم صار إلى

---

31 أبا حسين، فهد بن سعد أبا حسين، **تصحيح المفاهيم حول إحياء أماكن الأنبياء والصالحين**، الطبعة الأولى، 1429هـ، (16).

32 ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني، **اقتضاء الصراط المستقيم**، تحقيق: د. ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، الطبعة السابعة، (165/2).

33 رتر، إلدون رتر، **مدينتا الجزيرة العربية المقدستان**، (224/1-223).

34 الجاسر، حمد الجاسر، **أشهر رحلات الحج 1**، (44).

المغالاة في أنواع من العبادة، وصور من التنسك، بتميز واضح عن عموم السلمين بطرق خاصة، مما جعل له في العموم أثراً غير إيجابي، خصوصاً مع ما اعتراه من انحرافات عقدية وسلوكية. [35]

فقد كان للصوفية في الحجاز وجود ظاهر وانتشار واسع، وكانت جهود بعضهم مفيدة للمسلمين وكانت لها الكثير من الآثار الإيجابية على أهل مكة والزائرين لها من مختلف البلاد الإسلامية، حتى قال الرحالة "سنوك":"إن علوم الشرع والعقيدة والتصوف أسهمت مساهمة قوية في إحياء القيم السياسية الإسلامية، كما أن البيئة المكية تُساعد وتقوي الآراء والآمال الإسلامية من خلال ما تطرحه من موضوعات دراسية مختلفة، لا سيما وأن معظم الدارسين يفدون من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وهؤلاء حين يعيشون سوية يزداد الوعي لديهم بسعة انتشار دينهم، وتتقوى لديهم الأفكار التي يطرحها الطلبة القادمون من البلاد التي يحتلها الأجانب الغربيون بأن المسلمين ملامون بخضوعهم لفترات طويلة إلى هذه القوى الغازية"[36] .

كما كان للتصوف آثار سيئة من أظهرها انتشار المزارات، والافتتان بالقبور والأضرحة التي يُعتقد بركتها في مكة وفي الطريق إليها، ونسبة الكرامات المبالغ فيها إلى أصحابها، وإقامة الاحتفالات الدينية الكثيرة التي لم تأتِ بها الشريعة.

ففي مكة حظيت الصوفية بمكانة كبيرة منذ العصر المملوكي وامتداد العهد العثماني بعده، وظهر ذلك ببناء الأربطة والمدارس حول الحرم، التي كان جلّ قاصديها من المتصوفة، ومجيء مشايخ المتصوفة إلى مكة وإقامتهم فيها، وخص الحكام والوجهاء بالصدقات في مكة المكرمة على مشايخ وطلاب الصوفية، مع قيام الدولة على ترميم الأضرحة والمزارات، التي يعظمها الصوفية في مكة مما كان له الأثر الكبير في انتشارها.[37]

وفي مكة كان يُعلم بقبور بعض من الصحابة والمشهورين كعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر –رضي الله عنهما–، لكن فيما بعد أصبح من المتعارف عليه أين دُفنت أم المؤمنين خديجة، وأين دفُنت آمنة أم النبي ﷺ، وأبو طالب عمه،" ومنذ بداية الحكم التركي أصبحت القباب المقامة على الأضرحة المزعومة من أكثر مقدسات المعلاة قيمة، أما القباب المقامة على قبور الأولياء والصوفيين والأشراف سواء في مقبرة المعلا أم مقبرة الشبيكة، أو على جوانب الشوارع والطرقات فهي أكثر من أن تُحصى"[38].

---

35 ينظر: أحمد ناظرين، بدر بن محمد أحمد ناظرين، **التصوف في الحجاز إلى نهاية الحكم العثماني**، رسالة دكتوراه، (26/1).

36 هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، (356/2).

37 ينظر: المرجع السابق، (163/1).

38 هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، (567/2).

وكانت الدروس الخاصة بالتصوف تُعقد في المسجد الحرام يومي الجمعة والثلاثاء، والدارسون من كبار السن أو ممن بلغ مرتبة كبيرة في العلم، والكتاب الذي يُدرس فيها هو إحياء علوم الدين للغزالي.[39]

وقد كان لانتشار الصوفية في مكة أثر سلبي على بعض طلاب العلم، إذ كان الطلاب يتجهون إليها تاركين إنفاق أوقاتهم في مكة على العلم، وفي اليوم الثاني عشر من شهر رجب يُقام اجتماع كبير في المبنى المقام على سفح أبي قبيس، ويعرف باسم (الزاوية السنوسية)، ويجتمع فيه أفراد الطرق الصوفية التي أدت دوراً دينياً بارزاً في إفريقية والجزيرة العربية.

ويرى الرحالة الروسي "عبد العزيز دولتشين" أن ميل المكيين إلى التصوف يجذبهم له ليس الشعور الديني والرغبة في التنسك — فهم ليسوا مفرطين في التدين –، بل هو بسبب حبهم لحضور المناسبات الاجتماعية والأعياد التي تكثر بعد انتهاء الحج وسفر الحجاج.[40]

وكان " مشايخ الحرم وعلماءه يستاؤون كثيراً حينما يلتحق الكثير من طلبتهم بالطرق الصوفية، وهذا بطبيعة الحال يؤثر سلباً في دراسة هؤلاء الطلبة.. إن الطرق الصوفية في الأعم الأغلب تصرف طاقات الطلبة النافعة وجهودهم في أمور أبعد ما تكون عن تلقي العلم، والثقافة، والمعرفة"[41].

فكان لعلماء مكة موقف من بعض الطرق الصوفية في مكة، والتي لها إسهام في تأخير الطلاب عن ركاب طلاب العلم، حتى قال "سنوك": "إن العلماء المستنيرين يُدون دائماً عدم رضاهم عن الحركات الصوفية الشائعة، وخاصة مع ما يديه هؤلاء من شعوذة، ومواكب تكتنفها الضوضاء، ودراويش همهم التسول، وشيوخ رغبتهم في جمع حشود كبيرة أمامهم"[42].

إن مكة تميّزت بنشاطها الحضاري والعلمي وهي كما يراد لها أن تكون مصدراً للنور، حيث بدأ منها وإليها يعود، فيمكن أن تكون مبعثاً للخرافة؛ بسبب اعتناق بعض أهلها لبعض الخرافات التي يراها عليهم الأمم من أقطار الأرض، وبعض أولئك الحجاج والزائرين ولا شك سينشرون ما رأوه في بلادهم.[43]

وحين بدأ دخول الحجاز في حكم الملك عبد العزيز — رحمه الله– أبطلت الطرق الصوفية في مكة، وهدمت كل مظاهر تعظيم الأضرحة والمزارات، التي لم تأتِ بها الشريعة.[44]

4– الخلاف والفرقة التي أصابت المسلمين.

---

39 ينظر: المرجع السابق، (2/346-347).

40 ينظر: ريزفان، يفيم ريزفان، **الحج قبل مئة سنة**، (147).

41 هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**،(1/99).

42 المرجع السابق، (2/565).

43 ينظر: المرجع السابق نفسه، (2/451).

44 ينظر: أحمد ناظرين، بدر بن محمد أحمد ناظرين، **التصوف في الحجاز إلى نهاية الحكم العثماني**، رسالة دكتوراه، (1/170).

وكان هذا من أبرز التحديات الثقافية لما يترتب عليه من آثار سلبية وصراعات محتدمة بين المسلمين، ففي حديث أول رحالة دخل مكة وهو "فارتيما" رأى فيها حاكماً من سلالة النبي ﷺ وهو في حالة حرب دائمة مع إخوانه من الأشراف. [45]

وقد كان بالحرم الشريف أربعة مقامات تُؤدى فيها صلاة الجماعة مع أربعة أئمة كل حسب مذهبه، فمقامات المذاهب قد بنيت حول الحرم وجددت في عام 1072هـ، وعند بعضها تكون تشريفات شريف مكة ووالي الحجاز التركي. [46] ففي الطرف الجنوبي من المسجد المقام المالكي، وفي الجهة الغربية المقام الحنفي وهو أكبرها، يليه المقام الشافعي في الجانب الشرقي فوق بئر زمزم، وفي الجهة الشمالية مقابل الحجر الأسود يقع مقام الحنابلة. [47] ومقابل كل جهة من جهات الكعبة مقام لمذهب يقف عليها أثناء الصلاة مؤذنون من المذاهب السنية الأربعة، كما يوجد في مكة أربعة مفتين على المذاهب الأربعة. [48]

ومع أن ظاهرة وجود المقامات لم تكن محل توقف الرحالة، إذ لا يعتبرون ذلك مظهراً سيئاً في مكة، بل إن بعضهم ينظر إليها كمظهر من مظاهر الانفتاح على المذاهب المخالفة، وحسن تعامل معها، حتى المصلين على اختلاف مذاهبهم فإنهم في نظر بعض الرحالة لا يبالون بذلك الاختلاف بل بعضهم يصلي في أي مصلى يتيسر له إلا ما كان من أتباع جنود الملك عبد العزيز الذي التزموا الصلاة خلف إمام الحنابلة. [49]

ومع ثناء الرحالة على مظاهر ذلك الخلاف الذي أُحدث في المسجد الحرام، فإن القصة الكاملة لوجود تلك المقامات في الحرم قد بدأت مع الانشقاق والخلاف والتعصب بين المذاهب، وهي حالة فرقة وتناحر، وإلا فإن الحرم قبل ذلك كان له مؤذن واحد وإمام واحد كما في القرون المفضلة، وهو موطن للمسلمين جميعاً وموطن اجتماعهم في حجهم وصلاتهم.

المطلب الثاني: التحديات الاجتماعية

تميّزت مكة بمجتمعها المتعدّد الأعراق والعادات بل واللغات مع تجانس أهله ومحبة بعضهم لبعض، ونظرتهم جميعاً لبعضهم أنهم هم أهل مكة والحرم وإن كانت أصولهم البعيدة خارجة عنه، لكن كل ذلك

---

45 **رحلات فارتيما**، (51).

46 ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (159).

47 روش، ليون روش، **اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام**، (99).

48 ينظر: ريزفان، يفيم ريزفان، **الحج قبل مئة سنة**، (159).(184).

49 ينظر: رتر، إلدون رتر، **مدينتا الجزيرة العربية المقدستان**، (244/1)، (322/1).

لم يمنع المجتمع من وجود تحديات واجهت واقعه الثقافي أحسن في معالجة بعضها، وبعضها لا زالت موضع تحدٍ أمامه، فمن ذلك:

1. المكانة العلية التي أحاط المكي بها نفسه:

فقد شرف الله سكان مكة بمجاورتهم لبيته ومسجده الحرام، وهذا الأمر قد سبقهم إليه العديد من الأمم لكنها بانت وتحولت عن مكة، بسبب كفرهم وعتوهم مع مجاورتهم للبيت، وقد حدث لدى بعض أهل مكة أن يظنوا بأنفسهم أنهم أعلى من أمم الأرض الأخرى، وأنهم مفضلون عليهم، وأنهم يحضون برعاية خاصة من الله سبحانه، وقد أشار الرحالة "بوركهات" إلى أن المكيين زاد عندهم الأمر على حد الكفاية حتى أصبحوا يتعالون على الشعوب المسلمة الأخرى من الترك والجاوه وغيرهم. [50]

ويرى "بوركهارت" أن كثيرين من أهل مكة – خصوصاً الذين ليس لهم مصلحة في أن يتظاهروا أمام الحجاج بالتزامهم الصارم- يتهاونون في شعائر الدين وأركانه فالصلاة لا يؤدونها في المساجد بل في بيوتهم، فالحجاج يسارعون في الصلاة في الحرم بينما أهل مكة قد جلسوا يدخنون في حوانيتهم، فالمسجد الحرام يقل عدد المصلين فيه كثيراً بعد خروج الحجاج، والزكاة والصدقات لا يخرجها الكثير منهم بل يرون أنهم أحق بها لأنهم هم من يجاور البيت، وهم مع التزامهم السنن الظاهرة من إطلاق اللحى وتقصير الشوارب، والحفاظ على سنة السواك، وحفظ مجموعة من الأحاديث والأذكار وتكرارها، إلا أنهم لا يعملون بمعانيها في واقع سلوكهم، فهم يلعبون الميسر، ويشربون الخمر ويتعاطون الحشيش، ويتعاملون بالغش والحلف الكاذب والرشوة مع علمهم بحرمتها. [51]

كما يؤكد "بوركهارت" أن لدى أهل مكة نوع من الكبرياء والفخر، وأنهم مفضلون على الأمم الأخرى، على أن تلك الكبرياء لدى المكيين لم تدفعهم إلى عمل شيء جدير بالثناء، أو بناء مجد خاص بهم سوى الادعاء أنهم أهل أشرف البقاع، وأنهم من يتبعون سنة النبي ﷺ وأن لغتهم الفصيحة هي الأنقى والأجمل أمام لهجات المجتمعات العربية الأخرى. [52]

وحديث "بوركهارت" وغيره فيه جانب تعميم خاطئ عن جميع أهل مكة، وإن كانت تلك التصرفات من أفراد لا يسلم منها أي مجتمع، فتأكيده على وجود بعض المظاهر المخالفة لما جاء به الإسلام حق وصواب، لكن منهج الرحالة وغيره في تعميم تلك المخالفات على كل أهل مكة أو على الكثيرين منهم وهو منهج بعيد عن الإنصاف، وهي الطريقة التي انتهجها بعض الرحالة في شرح الحديث عن بعض الظواهر التي وجدها أو سمعها عن بعض أهل مكة المكرمة.

---

[50] ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (187-186).

[51] ينظر: المرجع السابق، (189-188).

[52] ينظر: المرجع السابق نفسه، (186).

- اختلاف عناصر سكان مكة المكرمة:

كان من أشد ما بلغ بالرحالة حالة الاستغراق في الذهول منظر الأجناس البشرية المختلفة في مكة، فهناك الأتراك بمعاطفهم الطويلة وباقاتهم البارزة، والأناضوليين بسراويلهم الفضفاضة وأسلحتهم الجميلة الساحرة، والعرب المجتمعين وكأنهم اصطفوا حول جنازة، والبدو برماحهم وسيوفهم، والهنود وجموع من الصينيين والجنويين وأهالي الملايو، وعدد من أجنس الأفارقة والمصريين والأفغان والسواحليين، في مشهد لا تكاد ترى له مثيلاً في العالم. [53]

فالغالبية العظمى من سكان مكة لا يزالون ينتمون إلى أصولهم الأولى، وقد قدموا لمكة رغبة في أن يكونوا مجاورين لبيت الله الحرام، وهذا الأمر– أي المقصد الشرعي في البقاء بمكة– يعطي تأثيراً فريداً لاجتماع هذه العناصر الوافدة. لكن هذا الاجتماع لم يكن يخلو من صحبة عادات كل موطن بما فيه من المحاسن والمساوئ، ولهذا "فالمجتمع لديه الكثير من المعتقدات الخرافية التي تسربت إليه من جميع بقاع العالم". [54]

فاجتماع العناصر المختلفة في موطن واحد يُسبب اختلافاً في اللغات، وتأثيراً في اللهجات وأساليب الحياة، خصوصاً إذا انضاف إلى ذلك أن أولئك المجاورين ممن يستقرون بمكة وتكون أحوالهم المعيشية ضعيفة فيتسبب ذلك في عزلتهم بمساكنهم ومعيشتهم الملاءمة لهم. [55]

ويذكر الرحالة "كورتلمون" أن السلطة في مكة كان من عاداتها قديماً أن تحث الحجاج على مغادرة مكة بعد موسم الحج، "بعد ثلاثة أيام من العودة من عرفات، يشرع المنادون في جَوب شوارع المدينة المقدسة قائلين:" أيها الحجاج لقد حان وقت الرجوع إلى أوطانكم، غداً ستنطلق قوافل مصر وسورية، كما أن السفن راسية في ميناء جدة في انتظار من يرغب السفر إلى بلده وقريباً ستبحر، وبعون الله ستصلون إلى بلدانكم سالمين غانمين مشمولين بالبركة"[56]. ولعل هذا الأمر سنة قديمة فقد كان من المعروف أن ينادي ولاة مكة بعد موسم الحج في الناس: يا أهل الشام شامكم، يا أهل اليمن يمنكم، يا أهل العراق عراقكم. [57]

لقد كان منظر اختلاف العناصر البشرية منظراً غريباً ألهب مشاعر الرحالة الذين توقفوا عنده طويلاً،

---

53 ينظر: برينث، بيتر برينث، **بلاد العرب القاصية**، (215).

54 هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، (448/2).

55 ينظر: شاكر، محمود شاكر، **شبه الجزيرة العربية 3 الحجاز**، (191).

56 جيل –جرفيه كورتلمون، **رحلتي إلى مكة**، (90).

57 ينظر: السباعي، أحمد السباعي، **تاريخ مكة**، (350).

فكانوا يعجبون من دقائق التفاصيل في الاختلاف بين زوار مكة فيما بينهم، وتعدد أجناسهم، والذي يقابله مشاعر الألفة والمحبة والمودة في مشهد يندر أن تجد له شبيهاً، حتى قال "جون كين"، "ومن النادر أن يشاهد المرء أي نوع من أنواع الشجار في الشوارع، وهو أمر محمود يُحسدون عليه، بالنظر إلى العدد الكبير من الأمم المختلفة والطوائف التي اجتمعت في مثل ذلك الحيز الضيف، والتي تبدي أشد أنواع العداء والبغضاء تجاه بعضها في أمكنة أخرى عادة".[58]

لكن هذا الإلف والود ما كان له أن يبقى بنظارته لولا نور الإيمان والأخوة الصادقة، وحين تختلط عناصر الناس في مكة، ويفزع كل قوم إلى محيطهم الخاص يقل التواصل المبني على الأخوة الإسلامية، ويكون النظر إلى مصلحة الطائفة والجالية، وتأتي العادات والمحظورات التي يصاب بها كل تجمع وجنس خاص، فتنتشر بعض العادات والأعمال السيئة، وكذلك الصالحة التي تجلبها كل طائفة من منشائها الأول، بلا تحفظ ولا ممانعة، وهذا الأمر لا يكون في المجتمع البعيد عن تعدد العناصر والتي تتطور فيها القيم والأخلاق بشكل إيجابي في الغالب.

- التقصير في مراعاة حرمة المكان:

فمكة حرمها الله وسماها بلدة محرمة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾[سورة النمل:91] ودعا لها إبراهيم بالأمن والرزق فاستجاب الله له في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [سورة البقرة:126].

وقد عظم النبي ﷺ مكة ودخلها يوم الفتح في هيئة التواضع والخشوع وقال: (إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ولم تحل لي إلاَّ ساعة من نهار..)[59]، وغيرها من الآيات والأحاديث الدالة على عظيم مكانة مكة وحرمتها، لكن المشاهد في بعض العصور من التاريخ الإسلامي الجرأة في اقتحام كثير من الحرمات والتي تعالى عن بعضها أهل الجاهلية لمزيد التعظيم لمكة المكرمة، فمن ذلك: استحلالها بالقتال فيها، وقد كانت مظاهر ذلك ظاهرة في تاريخ الأشراف وحكمهم لمكة، والذي قامت في الكثير من فتراته القتال بين الأخ وأخيه أو أبناء أخيه؛ لأجل الحصول على مقام شريف مكة الأكبر.

ومن المؤسف أن هذه الحرمة التي جعلها الله لمكة المكرمة لم ترعَ في كثير من عهود التاريخ، الأمر

---

58 ينظر: كين، جون فرايركين، **ستة أشهر في الحجاز**، (75).

59 البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، تحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ، كتاب العلم، باب: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، (1/32[104])، والامام مسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها، (2/986[445]).

الذي برز فيه عدم مراعاة حرمة البيت، وقد كانت لتلك المنازعات أثرها المؤسف في الجوانب الثقافية والاقتصادية في بلد قليل الموارد، حيث انتشرت في بعض فتراته المجاعة، وفقدان الأمن، والتأخر عن البناء الحضاري لمكة؛ للانشغال بتلك المنازعات.

وقد بقي المعترك السياسي في مكة يزيل شيئاً من حقوق الحرمة التي لمكة ويبث الخوف في نفوس سكانها، ويمنع الخارجين منها من الرحلة إليها، حتى " لقد أوشك سكان مكة أن يهجروها عدة مرات، فالحج توقف توقفاً تاماً بسبب الحروب أحياناً لعدة سنوات، والحرم الذي يعني اسمه نفسه (الملاذ) كان أكثر من مرة مسرحاً لصراع دموي، وإلى عهد قريب عام 1916م حين أنظم العرب إلى الحلفاء هاجمت بعض قوات الأشراف بنيران البنادق جماعة من الأتراك كانوا قد استجاروا بالمسجد العظيم"[60].

فالتقصير الذي ثار في نفوس سكان مكة تجاه حرمة البيت وساكنيه، وخصوصاً في شؤون البحث عن الإمارة والتغلب عليها، ومناصرة طلابها أمر محزن، حتى نسي المسلمون في مثل هذه المناسبات روح الدين الذي جمعهم في صعيد واحد، وأعلن فيه تحريم دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، ولتكون تلك المشاهد العظيمة للتراحم والتآخي، وطلب العفو والمغفرة من الله، في بلده المحرم، لكنهم نسوا كل ذلك وساروا خلف أغراضهم في الحكم، ورغبتهم في الإمارة، وبدلوا أمن الحجاج بإخافتهم، والتسلط على أموالهم بغير حق. [61]

ومن مظاهر الفساد التي يرتكبها بعض أهل مكة الجرأة باستقدام الخمر وشربه في مكة، حيث تجلب السفن الهندية كميات هائلة منه، توزع في مدن الحجاز، وإن كان بعض حديث الرحالة يتجه إلى النبيذ الذي لم يتحول ليكون خمراً. [62]

وفي مشهد آخر أكثر إيلاماً يذكر الرحالة "جون كين" تعاطيه والحجاج الذين سكن معهم من الهنود، لبعض أنواع الأفيون مرات عديدة طيلة إقامتهم بمكة، مع سكنهم جوار المسجد الحرام، أما عن عادة التدخين فالرحالة الروسي "عبد العزيز دولتشين" يقول بلغة التعميم التي انتهجها العديد من الرحالة في وصف مشاهداته عن مكة وأهلها وزائريها:" والجميع تقريباً يدخنون التبغ وعلى الأغلب النرجيلة"[63].

وقد حاول العديد من الرحالة التركيز على دخول الخمر إلى البلدة المباركة، مع شهادتهم أنه يوجد في

---

60 ينظر: رتر، إلدون رتر، **مدينتا الجزيرة العربية المقدستان**، (170/1).

61 ينظر: السباعي، أحمد السباعي، **تاريخ مكة**، (232-233).

62 ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (182-183). وينظر: جون كين، **ستة أشهر في الحجاز**، (79). وينظر: رتر، إلدون رتر، **مدينتا الجزيرة العربية المقدستان**، (349/1).

63 ينظر: ريزفان، يفيم ريزفان، الحج قبل مئة سنة، (73). وينظر: كين، جون فراير كين، **ستة أشهر في الحجاز**، (60-62).

أماكن معينة، أو لبعض الجند الذين هم ليسوا من أهل مكة، وتحمل تلك الإشارات في طياتها محاولة لإزالة شيء من المكانة التي احتفت بها مكة، والتحامل على قدسيتها، مع أن الحرمة والمكانة التي اختصت بها مكة قد جاءت من الله عز وجل، أما أعمال الناس فلا يضرون بها إلا أنفسهم، فالبقاع لا تُقدس أحداً.

ومن المظاهر المؤلمة التي كان يقوم بها بعض أهل مكة وباديتها بقيادة بعض الأشراف الابتزاز لكل قافلة تأتي إلى مكة حتى يأخذوا منها الكثير من المال رغم المخصصات التي ترسلها الدولة لهم، ففي بعض فترات حكم الأشراف لمكة المكرمة عند سماعهم بقرب وصول القافلة يخرجون من مكة بكل أتباعهم مسلحين ومعهم حلفاؤهم من البدو، ويدخلون في مفاوضات مع قادة الحملة لعدة أيام قبل الاتفاق على مقدار الإتاوة التي يتعين على الحملة دفعها لهم.[64]

ومما كان يحاذره الحجاج في خير البقاع، وأشرف الأزمان في أيام منى وعرفة، تسلط اللصوص على الحجاج، وأخذ أموالهم، فيذكر "بوركهارت" أن أحد الحجاج في منى سُرق منه ثلاثمائة دولار، وأن الحجاج لا يهنؤون بالنوم في أيام منى خوفاً من اللصوص.[65]

ولقد بلغت الجرأة لدى البعض على سرقة الحاج أمام الناس في مشاهد تؤلم وتؤثر على نقاء الحج، فأحدهم يتجرأ بقطع حزام الحاج حين رأى فيه النقود ويزيد على ذلك بطعن الحاج ليتمكن من الهرب، وآخر يدخل خيمة الحجاج في منى وقت نومهم ليسرق ما استطاع من متاعهم، ثم يتخفى بين جموع الحجاج الكثيرة.[66]

لكن مظهر النهب والسرقة للقادمين لمكة يذهب للتلاشي في غير مواسم الحج، فالرحالة الفرنسي "كوتلمون" يتفاجأ بأن أبواب المخازن لا تقفل، والبضائع تُترك وحدها عرضة لكل مار ليلاً ونهاراً، ولا توجد شرطة، والسرقة والجريمة غير معروفة في مكة، كما يذكر الرحالة "إدون رتر" أن أتباع الملك عبد العزيز كانوا يتابعون الناس يوم عرفة وينفذون بينهم، حراسة لهم من حصول أي عمليات سرقة أو نهب للحجاج، والذين أقاموا حد السرقة في أحد الجناة، وأن الأمن قد ساد منذ دانت له الحجاز.[67]

وما ذكره الرحالة "كورتلمون" ظاهر في براءة أهل مكة من عادة السرقة والنهب، وأن تلك الحوادث قد تكون من الأعراب، أو بعض الحجاج الذين رقَّ دينهم، أو من بعض المكيين، لكنه لا يشكل عادة

---

64 ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (231).

65 ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (258).

66 ينظر: وافل، آرثر جون وافل، **رحلة الحاج المعاصر إلى مكة**، (183)، (186).

67 ينظر: جيل- جرفيه كورتلمون، **رحلتي إلى مكة**، (24). وينظر: رتر، إلدون رتر، **مدينتا الجزيرة العربية المقدستان**، (219/1-218)، (360/1).

عند المكيين.

فالنظر إلى اختصاص أهل مكة بحب جمع المال من أي طريق دون مراعاة الحلال والحرام، واستغلال الحجاج من لدن الرحالة، حتى ليجعل القارئ يتصور أن أهل مكة المكرمة مجموعة ممن لا هم لهم إلا سرقة قوافل الحجاج على مشارف مكة، أو استغلالهم وسرقتهم في أي فرصة تبين لهم، وهو بعيد عما يتميز أهل مكة المجاورين للمسجد الحرام، والذي أثر فيهم القرب من الحرم والصلاة فيه من معالم التقوى والصدق، مع حدوث تلك المظاهر من بعض أهل مكة حالهم في ذلك حال المجتمعات البشرية الأخرى التي يكون في ذلك، وقد أورد المؤرخون من القصص ما تدل على تمام تقوى وأمانة أهل مكة، وهي ما تقابل روايات بعض الرحالة عنهم، وكثيرة هي القصص عن أمانة أهل مكة مع الحجاج مع ضيق بلدهم وقلة موارده، وهو كثير في مواضعه الأخرى من كتب السير والتاريخ. [68]

كما يذكر الرحالة أن بعض أهل مكة قد تجرأ على الغش والخداع للحجاج، خصوصاً مع جهلهم باللغة العربية، وجهلهم بقيمة البضائع لاختلاف البلدان والأسعار، كما جذب بعض ساكني مكة إلى جني الكثير من الأرباح عن طريق خداع الحجاج، وجعلهم يدفعون أغلى ثمن لخدماتهم،" وحقيقة الأمر أن كلّ أهل مكة يبدون متحدين في تنفيذ خطة غشِّ الحجاج –كما يقول "بوركهارت"–"[69].

وحين دخل الحجاز في حكم الدولة السعودية أبطل الملك عبد العزيز –رحمه الله– العادة التي سار عليها المطوفون في عهودهم الأخيرة من إلزام الحجاج بالدخول تحت مظلة خدمات أحد المطوفين المعتمدين في مكة وإلا فإن ذلك يمنعه من توافر السكنى والخدمات التي يحتاج إليها، فجعل الملك عبد العزيز –رحمه الله– للحاج حق الاختيار في ذلك، وتمّ في أوائل عهده إعلان أمر الناس بالمعروف في حضور صلاة الجماعة في المساجد كما يقول الرحالة "إلدون رتر". [70]

ومما يسجله الرحالة "بوركهارت" من مشاهد عدم التعظيم لمواقف الإيمان في أيام الحج وبين جموع المسلمين الخاشعة والسائلة للمغفرة والعفو في يوم عرفة فيقول:" وكثير من أهل الحجاز ومن عسكر الجيش التركي كانوا في هذه الأثناء يثرثرون ويتضاحكون، وكلما لوّح الآخرون بإحرامهم قام أولئك بحركات عنيفة كما لو أنهم كانوا يسخرون من هذه الشعائر، وإلى الخلف على جبل عرفات لا حظت

---

[68] ينظر: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، **صفة الصفوة**، دار الحديث، القاهرة، طبعة عام: 1421هـ، (139/1-144). وينظر: كتبي، زهير محمد كتبي، **شخصية مكة المكرمة الجنسية**، دراسة أنثربيولوجية الأسماء، الطبعة الأولى، 1421هـ.

[69] بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (258).

[70] رتر، إلدون رتر، **مدينتا الجزيرة العربية المقدستان**، (125/1). (255/1)

جماعات مختلفة من العرب والجنود الذين كانوا يدخنون النرجيلة بهدوء، وفي كهف قريب جلست امرأة سافرة تبيع القهوة وكان زبائنها بقهقهاتهم العالية ومسلكهم الرقيع يعكرون جلال الإيمان عند الحجاج القريبين منهم".[71]

والحق أن ارتكاب بعض الناس لبعض الفسوق قد حصل في أشرف العصور، وإن كان الذي يجب أن يراعيه سكان مكة تمام التقوى والأدب في البلد الحرام، لكن البشر في أصل فطرتهم خطاؤون، وإشارات بعض الرحالة عند ارتكاب أهل مكة لبعض المحرمات فيه نوع من المبالغة والتعميم لا يُنكر.

2. الطمع في الحصول على المال من الحجاج:

فقد أكثر الرحالة من ذكر انشغال المكيين بمهنة الطوافة لطمعهم فيما عند الحجاج من الأموال، وإن كان في بعض كلامهم نوعاً من المبالغة والإلغاء لحاجة الناس إلى مكسب يتحصل به قوتهم في مدينة ليس فيها زرع ولا بحر، ولا يصل إليها إلا الحجاج والزوار، وهم يقدمون لهم المال لمهنة الطوافة التي تدلهم على أماكن مكة وشعائرها، وتهيئة مساكنهم واحتياجاتهم طيلة إقامتهم في مكة، لكن الأمر زاد عن الحد المقبول حتى صار كثير من الأعيان، ومن يقوم بخدمة البيت الحرام يطلب المال في مقابل خدمات لا تستحق بذل شيء لهم إلا أن يكون ذلك تبرعاً من الحاج، كما هو الحال في فتح باب الكعبة والدخول إليها، أو رؤية مفتاح الكعبة ونحو ذلك، فالأغوات يهوون بعصيهم بقسوة على أولئك الذين لا يضعون في أيديهم أموالاً عند دخولهم لجوف الكعبة، فلا بد من دفع المال لهم قبل الدخول وبعده، وعند مدخل الكعبة يجلس أحد الأشراف حاملاً في يده مفتاح الكعبة، فيقدمه للحاج كي يقبله نظير مبلغاً من المال، يقول "بوركهارات":" وقد سمعت حجاجاً كثيرين ينتقدون بقسوة هذه التصرفات المخجلة ذاكرين أن أكثر بقاع الأرض طهراً يجب ألا يشهد هذا الطمع والجشع البشريين، إلا أن أهل مكة لا يأبهون بهذا اللوم"[72].

ومثل ذلك كان الحال عند إرادة رؤية مقام إبراهيم، والذي يقع في حجرة عليها باب خشب في الجهة الشمالية من المسجد، ولا بد حتى يتمكن الزائر من رؤيته من دفع مبلغ كبير كما يقول الرحالة "جون كين".[73]

وكانت من الصور المعروفة والمؤلمة في مكة والتي تدل على عدم مراعاة حرمة مكة انتشار الربا الذي أوضح الله في كتابه محاربته لأصحابه كما قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ

---

71 بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (250).

72 بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (165). وينظر: روش، ليون روش، **اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام**، (115-114). وينظر: رتر، إلدون رتر، **مدينتا الجزيرة العربية المقدستان**، (1/265-268).

73 ينظر: كين، جون فراير كين، **ستة أشهر في الحجاز**، (69).

مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾[سورة البقرة: ٢٧٨]، ويكون الربا أحياناً مع بعض الجاليات القادمة إلى مكة كالجاوة مثلاً ممن يُستغلون بإقراضهم في مقابل ربح وفير بالربا.[74]

وصحب ذلك مظاهر الإسراف لدى المكي، والتي نهى عنها الإسلام، حتى أن تكاليف الزواج لدى المكي يمكن أن تؤدي به إلى إفلاس محقق في كثير من الأحيان، حتى قال "سنوك": "والمكي بطبيعة الحال يحب الاستدانة والاقتراض من الناس، وإذا أراد الاقتصاد في النفقات فإنه يلقى معارضة شديدة من أقاربه وخاصة النسوة منهم".[75]

ويقول "بوركهارت" مؤكداً على فساد الترف في حياة المكي، "إن الثروات التي تنساب على مكة سنوياً من التجارة والصرة والأرباح المحصلة من الحجاج كبيرة جداً، وكان من الممكن أن تجعل مكة إحدى أغنى المدن في الشرق لولا عادات أهلها المنطوية على الانغماس في الترف.. فغالب أهل مكة على اختلاف صفاتهم وأعمالهم يُعدون من المبذرين وينفقون بلا نظام، إذ يبددون المبالغ الكبيرة التي جمعوها خلال ثلاثة أو أربعة شهور في المعيشة الطيبة والثياب الفاخرة والمسرة والبهجة".[76] وكأن ثقة المكي بتحصيل المكاسب من الحج تجعله واثقاً في حصول المال الوفير بعد ذلك، مع تيسر العمل بسبب الانشغال في الطوافة، فتبذر الأموال الكثيرة في حفلات الختان والزواج، إذ تجري الاحتفال بهاتين المناسبتين في مكة ببذخ.[77]

وقد وصل الفساد الذي لم يراع حرمة مكة بالتسلط على الأوقاف التي أوقفها أصحابها لأوجه الخير، فبعضها توسع الشريف بأخذ جزء منها خصوصاً حال منازعات القائمين عليها، والبعض كانت يد الفساد من النظار عليها، فمع تصدق أهل الإحسان على إصلاح تلك الأوقاف والعناية بها بشكل مستمر إلا أن بعض النظار يستفيدون من تلك الأموال لحاجاتهم الخاصة، وقد أثر سوء إدارتها على تهديد بقاء بعضها وبدايات الخراب في بعضها الآخر، وتقليص دخل تلك المؤسسات لدرجة أصبحت عاجزة عن القيام بما أوقفت عليه، فأضحت أماكن مهجورة، أو تمَّ تأجيرها كمساكن على الحجاج، حتى وصل الحال إلى أن كلمة مدرسة تعني داراً جميلة بجوار الحرم![78]

لقد شملت الأوقاف التي جعلها السلاطين والأمراء وعامة المسلمين الكثير من مناطق الدولة

---

74 ينظر: هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، (581/2).

75 المرجع السابق، (493/2).

76 بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (182).

77 ينظر: المرجع السابق، (182).

78 ينظر: هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، (521/2- 522).

العثمانية، فلا تجد مدناً أو مقاطعات إلا وقد أوقفت على الحرم وأهله المجاورين فيه، لكن هذه الأوقاف غالباً ما كان يحتجزها الحكام المحليون، أو تنقص شئياً فشيئاً من قِبل الأيادي التي تمر من خلالها، فلا يصل للمسجد الحرام منها إلا القليل، حتى وصف "بوركهارت" الحرم من حيث المخصصات المالية التي تصل إليه، بأنه" فقير مقارنة بما كان عليه سابقاً "[79].

لقد كان لتلاعب النظار المتولين لشؤون الأوقاف على مكة المكرمة وساكنيها، وإطلاقهم التصرف في أموال الأوقاف بغير حق، الأثر البالغ على الرقي بمكة في مجلاتها المتعددة، فلو اجتمعت ريع تلك الأوقاف وتمّ تنظيمها فيما ينفع مكة من مدارس ومستشفيات، ومراكز رعاية، ونحوها لنهضة المجالات الصحية والعلمية والصناعية والعمرانية بمكة بشكل كبير، ولكان خيراً من اقتصار صرف تلك الأموال على ساكني مكة، دون نظرة أبعد لاحتياجات مكة المكرمة وأهلها، فقد كان الاكتفاء بصرف الأوقاف لهم باعثاً لبعضهم على الكسل وترك العمل، " فمع التباعد عما يغري الأهالي بالكسل، ويعودهم البطالة، ويوجد عندهم عقيدة معناها: أن أهل الحجاز أو أهل الحرمين الشريفين لا يجب عليهم الكسب من عرق جبينهم ولا الاشتغال بصناعة، أو تجارة، أو زراعة، وإنما وجدوا لعيشوا من مجرد الصدقات، والمبرات، وهدايا المجتمع الإسلامي، مما لا يليق بهم ولا ينفعهم ولا يكفيهم مهما كثر؛ لأن الإنسان الذي لا يعيش من كسب يده يجد نفسه دائماً في ضيق"[80].

– ومن التحديات الاجتماعية: انتشار ظاهرة التسول:

فحاجة الإنسان لبعض المال لفقره، أو انقطاع السبيل عليه أمر طبعي، لكن كثرة هذا الأمر بحيث يصبح ظاهرة تزعج الحجاج والزائرين لمكة، لم يكن لينشر الرقي الثقافي لمكة المكرمة، يقول "بوركهارت":" فالحجاج الفقراء يفنيهم الجوع والمرض، ويشاهدهم المرء وهم يجرون أجسادهم المنهكة جرّاً ويستندون على الأعمدة، وعندما يحس الواحد منهم بدنو أجله يغطي نفسه بثوبه الممزق، وغالباً ما يمرُّ يوم كامل قبل أن يُكتشف أنه مات، وطول الشهر الذي أعقب موسم الحج كنتُ أجد في كل صباح غالباً جثة حاج مطروحة في المسجد الحرام، ويوجد بالمسجد الحرام عدد من الأشخاص موظفين لغسل المواضع التي يموت فيها هؤلاء الناس غسلاً جيداً، وكذلك لدفن كل الفقراء والغرباء الذين لا أصدقاء لهم، والذين توافيهم مناياهم في مكة "[81].

ويكثر المتسولون في أيام الحج، ومعظمهم من الهنود وأهل اليمن، فمعظم الجماعات الهندية الفقيرة

---

79 بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه الجزيرة العربية**، (148).

80 أرسلان، الأمير شكيب أرسلان، **الارتسامات واللطائف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف**، مكتبة الثقافة الدينية، 2006م، (110-111).

81 بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه الجزيرة العربية**، (151).

سرعان ما تعمل بالتسول، حتى قال "جون كين": " ولم يبدو أن هناك حداً لحياة البؤس المدقع والفقر الذي قد ينحدر إليه الهندي ويعيشه".[82] كما أن هناك متسولون سوريون ومصريون ومغاربة، أما الأفارقة فلا يمتهنون التسول إلا نادراً، فهم يفضلون العمل في المهن الشاقة، كأن يكونوا حمالين جالبين للحطب من الجبال والمناطق المجاورة على التسول[83].

ويرى "بوركهارت" أن في تصرف بعض المحسنين الذي يبذلون الأموال والتبرعات على الفقراء المجاورين بالحرم أكبر عامل جذب لبقاء أولئك المتسولين وكثرتهم فيقول: "والواقع أن المحسنين والمتبرعين للكعبة قد أثروا هذا المكان المقدس في مكة، حيث تم تعيين أشخاص كسولين في الحرم المكي، لكن أحداً لم يفكر في تكوين منشأة لتسهيل الحج للفقراء الزنوج والهنود أو في تدبير أمر نقلهم مجاناً إلى الحجاز"[84].

كما يرى "بوكهارت" أن المتسولين وبسبب زيادة عددهم، وإلحاحهم في الطلب قد ترك الحجاج يؤثرون البقاء في منازلهم تهرباً منهم، كما أن بعض الحجاج ممن انتهت نفقاتهم في الحج قد انضموا للمتسولين فيطلبون من الناس النفقة التي تعين على عودتهم لبلادهم، وهم يشتكون من الهزال وسوء التغذية، وفي كثير من الأحيان لا يجدون المسكن أو يتكدسون في مساكن ضيقة تكون محلاً لانتشار الأوبئة.[85]

وقد حاول "بيرتون" اقتراح معالجة لذلك للحجاج الهنود، فأوصى حكومته بأن لا تسمح بالحج إلاَّ لمن توفر لديه مبلغ مناسب للحج يساعده على عدم الافتقار والحاجة للناس، لما رآه من كثرة المتسولين من الحجاج الهنود.[86]

أما "عبد العزيز دولتشين" فيؤكد على أهمية إظهار الملاءة المالية لدى الحجاج من مبدأ سفرهم من أراضيهم بإظهار التذاكر ذهاباً وإياباً، وتقديم كفيلين يشهدان على استطاعته المالية في القيام بالحج، وأن لديه ما يكفي من المال لحاجات الطريق والإقامة بالحجاز.[87]

المطلب الثالث: التحديات الصحية

---

[82] كين، جون فراير كين، **ستة أشهر في الحجاز**، (82).

[83] ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه الجزيرة العربية**، (193) و (234-238). وينظر: روش، ليون روش، **اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام**، (125).

[84] بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه الجزيرة العربية**، (236)

[85] ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه الجزيرة العربية**، (264)

[86] ينظر: **رحلة بيرتون**، (56/3).

[87] ينظر: ريزفان، يفيم ريزفان، **الحج قبل مئة سنة**، (236-235).

مما لا شك فيه أن البيئات الصحية يكون لها أثر في الازدهار والتقدم الثقافي والحضاري، وحين قدم النبي ﷺ المدينة وكانت تُشتهر بالحمى، دعا رسول الله -^- أن يصرفها عنهم.[88]

وقد ذكر الرحالة "علي باي" أن أجواء مكة صحية، وفي مشاهداته لمكة يذكر عن مكة أنه ليس فيها الكثير من المرضى، ولا وجود للأمراض المزمنة، ولا يوجد شيوخ في عمر متقدم، ولا يوجد عميان، ولا أمراض العيون كما هو شائع في مصر.[89] لكنه يعود ويشير إلى قلة معرفة أهل مكة بالطب، وافتقارها لأطباء، وفي وقت إقامته لم يكن في مكة إلا طبيبين، ويرى أنهما جاهلان بالطب تماماً.[90]

ولكن الكثير من الرحالة يذكر مشاهداته عن مكة وسوء بنيتها التحتية فالشوارع ضيقة، وأحياؤها لا ترفع عنها القاذورات، بل في فترة الحج حين تجتمع القاذورات يعمدون إلى دفنها تحت التراب بجوار دورهم، فتفتقر بذلك للهواء النقي، وكل ذلك يؤثر صحياً على البيئة المكية.[91]

والرحالة "أوغست والين" كان يعاني من قلق شديد، وهو في مكة بسبب إصابته ببعض الدمامل والحمى، والتي كان يخشى أن تتطور مع جو مكة الشديد الحر إلى مرض قاتل، فضلاً عن أعداد الذبائح الكبيرة التي فاحت منها رائحة كريهة، مع انعدام النظافة في كثير من المناطق التي شاهدها في مكة. [92]

وقد اهتم الرحالة بتدوين كل ما تقع عيونهم عليه أو يتناهى إلى مسامعهم عن الأحوال الاجتماعية والصحية في مكة، بل كانت من أوضح المهام التي كُلفَ بها بعض الرحالة كتابة التقارير المفصلة عن الأحوال الصحية في مكة كما فعل الرحالة "عبد العزيز دولتشين".

ونتيجة لانشغال حكام مكة بالحروب فيما بينهم، فقد عانت مكة من نقص الخدمات الأساسية والتي تعين الإنسان على المعيشة الصحية كنقص الماء العذب والذي تحدث "فارتيما" عن معانة أهل مكة من جراء نقصه وغلائه.[93] فالنظام الصحي في مكة كان بدائياً متأخراً عن حاجة سكانه وحاجة الحجاج، ويذكر بعض الرحالة العديد من المشاهد التي تؤثر في الحياة الصحية في مكة، مثل ذبح الأضاحي في منى بشكل كبير ودون أخذ احتياطات صحية في التعامل مع ذلك، مما يؤثر حتى على الهواء في مكة، كما أن بعض أهل مكة يعمد إلى دفع القمامة في أماكن قريبة من الطرق المقابلة لداره،

---

[88] البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبيﷺ أن تعرى المدينة، (3/23|1998).

[89] ينظر: باديا، دمنجو باديا، **رحلة إسباني في الجزيرة العربية**، (253).

[90] ينظر: المرجع السابق، (253-254).

[91] ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (120).

[92] ينظر: أورنبيري، كاي أورنبيري، **عاشق الصحراء أوغست والين**، ترجمة: مارية باكلا، (505-506).

[93] ينظر: **رحلات فارتيما**، (52).

فمكة تشتهر بالأمراض والأوبئة، وبأن شوارعها وعرة متسخة –كما يقول "جون كين"–.[94]

ومن الأمراض التي انتشرت في الحجاز في مواسم الحج وبعده الكوليرا والطاعون وغيرها من أنواع الحمى، والتي يقابلها قلة المشافي والعناية الصحية الآزمة، فحتى في جدة التي تكون موطن التجمع الأكبر لحجاج البحر تكاد تكون العناية الصحية معدمة.[95]

ويعتبر يوم عرفة وأيام منى بعده أكثر المراحل رهبة للحجاج، فالذكريات والقصص عن مرض الكوليرا الرهيبة والتي غالباً ما تنتشر في أوقات الاجتماع الكبير للحجاج، تثير رعباً خاصاً وشديداً، ويكثر الرجاء عند الحجاج بالعودة سالمين من موقف عرفة، ويوصي بعضهم بعضاً بشأن أمواله، ومراسلة أهله، فبين الخيام تتراكم بقية الأغنام التي تم ذبحها يوم عرفة وبقية الأيام لأكل الحجاج مما تؤثر في الهواء مع ما يصحب ذلك من مناخ جاف يساعد على سرعة فساد اللحم، وانتشار الروائح النتنه، فيؤثر في الجو الصحي للحجاج.[96]

وفي مكة يذكر "بوركهارت" أن المرض والموت يشيع فيها خصوصاً بعد انتهاء موسم الحج ويعزو ذلك لما يلقاه الحاج من المعاناة في سفره إلى مكة والازدحام الشديد في الباخرة لمن يسافر بحراً، أو بسبب لباس الإحرام الخفيف، أو بسبب أماكن الإقامة غير الصحية والطعام والشراب الرديء، أو بسبب المناخ الحار والرطب الذي لم يألفه الحجاج" كما يمتلئ المسجد بالمرضى، وكثيرون منهم عندما تقترب نهاياتهم يُحملون إلى الأروقة لينظروا إلى الكعبة، ممتعين النظر إليها، أو ليسعدوا بموتهم في هذا المكان الطاهر"[97].

وكلما مر على مكة عارض من سيل كثر المرض والوفيات فيها، حتى ذكر "جون كين" بعد نزول أمطار غزيرة وحصول سيل أصاب مكة في وقته، بأن الوفيات كثرت بعده، "وبعد ثلاثة أيام من الطوفان بدا لي أن عدد الوفيات في ازدياد مطّرد، وبعد ذلك بعشرة أيام، أصبح عدد الجنائز التي تمرّ بالحرم كبيرة إلى درجة أنه حدث أن تتأخر صلاة الظهر ساعة يومياً، حتى أني عددت الجنائز في أحد الأيام ثلاثاً وستين جنازة"[98].

---

94 ينظر: كين، جون فراير كين، **ستة أشهر في الحجاز**، (99)، (257). وينظر: ريزفان، يفيم ريزفان، **الحج قبل مئة سنة**، (75–74)، (144). وينظر: رتر، إلدون رتر، **مدينتا الجزيرة العربية المقدستان**، (252/1).

95 ينظر: ريزفان، يفيم ريزفان، **الحج قبل مائة سنة**، (66)، (70).

96 ينظر: المرجع السابق، (208 – 211).

97 بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه الجزيرة العربية**، (151). وينظر :(150). وينظر: روش، ليون روش، **اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام**، (89–88). وينظر: ريزفان، يفيم ريزفان، **الحج قبل مئة سنة**، (245).

98 كين، جون فراير كين، **ستة أشهر في الحجاز**، (144).

وفي مقابل اجتماع الناس في مكة، وحاجتهم إلى المشافي والأطباء، فقد كانت مكة فقيرة منها كما هي أرضها فقيرة من الزرع، ولم يذكر "جيوفاني فيناني" شيئاً من العناية الصحية في مكة مع الحاجة إليها في ذلك الوقت لتفشي الطاعون تلك السنة، ففي سريته البالغة ثمان وعشرين مجنداً لم ينج منهم إلا ثمانية جنود منهم "فيناني" الذي لحقه المرض فيما بعد إلى مصر، فالحجاز يُشكل دائماً خطراً على البلدان الأخرى حين تتردى المستويات الصحية فيه، وتحل الأوبئة به.[99]

إن التحدي الصحي كان أكثر ما يشغل تفكير الناس قبل الحج، فأمراض مثل الكوليرا والطاعون كانت تبعث على الخوف والقلق، كما كان للأحوال الصحية آثارها المؤلمة على الحجاج في خاتمة موسم حجهم، إلا أن تأثيرها يلقي بظلاله في مبتدأ أمر العزيمة على الحج، فكثيراً من الحكومات تمنع رعاياها من الذهاب لمكة بعد أن يتلقون الأخبار بانتشار وباء الكوليرا كما فعل الاستعمار الفرنسي في الجزائر، والحكومة المصرية في مصر، وبذلك يُحرم كثير من المسلمين الوصول إلى مكة وحضور مواسمها والتأثر بثقافتها. [100]

وقد زال الخطر الصحي بفضل الله عز وجل ثم بجهود حكام الدولة السعودية، إذ قلّت الوفيات بسبب الأمراض في الحج وقلة الخدمات الصحية منذ بدأ عهد الملك عبد العزيز – رحمه الله– فاهتم بالأمور الصحية في مكة، حتى قال الرحالة "عبد الله فيلبي": "وخلال السنوات الست عشر لحكم ابن سعود لم تكن هناك أوبئة في موسم الحج، وهو جهد للمصلحة الطبية الحكومية يستحق الثناء"[101].

المبحث الثاني

التحديات الخارجية للواقع الثقافي في مكة المكرمة

حفظ الله مكة من وصول طلائع الاستعمار إلى أرضها، إلاَّ أن عيونه قد شاهدوا أعلامها، وكتبوا عن مشاهدها وأحداثها، وكما أن الاستعمار كان بعيداً عنها فقد كان سفراء بعض دوله في جدة والطائف يتعرفون على كل ما يؤثره الحج على رعاياهم، وقبلهم كان للوجود التركي دور محمود في حفظ بلاد الحجاز عن أيدي الاستعمار في أطواره المختلفة، لكنه كذلك فرض بعض العادات والتنظيمات التي لم تكن في بلاد الحجاز من قبل.

كما كانت حملة حاكم مصر محمد علي مؤثرة على الصعيد الثقافي في الحجاز، حيث بقيت تبعية

---

99 ينظر: **جيوفاني فيناني حياته ومغامراته في جزيرة العرب**، (191–194). وينظر: ريزفان، يفيم ريزفان، **الحج قبل مئة سنة**، (248).

100 ينظر: جيل –جرفيه كورتلمون، **رحلتي إلى مكة**، (36). وينظر: رتر، إلدون رتر، **مدينتا الجزيرة العربية المقدستان**، (28/1). وينظر: وافل، آرثر جون وافل، **رحلة الحاج المعاصر إلى مكة**، (166).

101 جون فيلبي، هاري سانت جون فيلبي، **حاجٌّ في الجزيرة العربية**، (51–52).

الحجاز لمكة المكرمة بضع سنين، وحين وصلت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت تحدياً للثقافة التي سادت مكة وما كانت تحمله من أخطاء في المعتقدات، فدخول الدعوة قد أزال كثيراً من المظاهر السائدة في تعظيم القبور والمزارات، فكان له ايجابيات عظيمة.

وقد ظهرت أبرز التحديات الخارجية في واقع مكة الثقافي من أربع جهات، كانت بعضها خير لمكة وأهلها وهي حماية الأتراك للحجاز من هجمات دول الاستعمار، وكذلك دخول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى مكة، وأما الباقية فقد كان فيها شر عناء، كما سيظهر معنا في المباحث التالية:

المطلب الأول: الأعراب

يُشكل الأعراب عنصراً من عناصر السكان في الحجاز، وتنتشر قبائلهم في أطراف مكة والكثير من مناطق الجزيرة العربية، ويعمل بعضهم بنقل الحجاج على الجمال، وتربية الماشية، إلا أن جزءاً منهم قد انشغلوا عن ذلك بنهب الحجاج وسرقة أمتعتهم مما زرع القلق والخوف في نفوس الحجاج، "ولا يتميز العرب الرُّحل البتة بالتدين الشديد، وهم يخلطون الدين بكثير من العادات والأساطير والأقوال المأثورة التي تتناقض تماماً مع تعاليم الإسلام، ونادراً ما تتوافق فيما بينها"[102].

إن الخطر الذي يشكله الأعراب على الحجاج إما في عمليات النهب الصغيرة والخاطفة التي يقومون بها على شكل مجموعات صغيرة تتابع أماكن قوافل الحجاج، حتى إذا استراحت انتظر أولئك الأعراب من يبتعد قليلاً عن القافلة ليسرعوا إليه منتزعين منه كل ما يحمله من النقود، ويحدث في ذلك تعرض الحاج للضرب المميت أو الطعن، وأحياناً يكون خطرهم من جراء قبائلهم التي تكون على طريق قافلة الحجاج فلا تسمح بمرورها إلى بصلح مالي وربما ينتهي الأمر باشتباك مع جنود القافلة، مما يخلف بعض القتلى و الجرحى، مع اعتداء أولئك الأعراب على دواب الحجاج وممتلكاتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فهم لا يرونه عيباً أو مذمة بل مفخرة وفتوة؛ بسبب جهلهم وبعدهم عن تعاليم الدين الحنيف.[103]

وقد بلغ الخوف من غاراتهم في نفوس الحجاج أن يحاذروهم على طول الطريق إلى مكة، فهم كل سنة يقتلون عشرات الحجاج لأجل الحصول على أموالهم، حتى أن القوافل كانت تتلقى في مكة بالفرح والبشارات؛ بسبب ما يصل من الأخبار إلى أهل مكة عن تعرض القافلة للنهب من أهل البادية.[104]

فقصص الطريق إلى مكة مليئة بالعقد المخيفة، ولا تكاد تخلوا قصة رحلة من همّ السلامة من الأعراب

---

[102] ريزفان، يفيم ريزفان، **الحج قبل مائة سنة**، (111).

[103] ينظر: ريزفان، يفيم ريزفان، **الحج قبل مائة سنة**، (125-122).

[104] ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (239). وينظر: **ريزفان، يفيم ريزفان، الحج قبل مائة سنة**، (112).

في طريقهم إلى مكة، فالرحالة "أوغست والين" يحكي طرفاً من المخاوف في رحلته للحج، فيقول: "قضينا هنا ليلة قلقة جداً مثل باقي ليالي الرحلة؛ وذلك لأن قطاع الطرق البدو كانوا يختبئون في كل مكان لسرقة ما يمكنهم أن يسرقوه، والغريب أنهم كانوا في كثير من الأحيان يتمكنون من سرقة جمال جاثية على ركبتيها بجانب أصحابها" [105].

وفي مكة وبين مشاعرها يبقى الخوف حاضراً من غارات الأعراب، ممّا يضطر الحجاج أحياناً لتقديم ذهابهم إلى عرفة لاستباق تجمع الأعراب ضدهم، بل وصل الأمر إلى خوفهم من الطريق بين جدة ومكة، ومكة والليث ومكة والطائف بسبب غاراتهم.[106]

ويذكر "بوركهارت" أن الحجاج كان يصيبهم الهلع من اللصوص في منى وعرفة، وأن أحد الأعراب سرق أحد عشر جملاً في عرفة، ويضيف الرحالة "دولتشين" أنهم كانوا يسمعون على الدوام أعمال السلب والنهب دائماً. [107]

ولأن مكة كانت مفتقرة إلى أنظمة الشرطة والحماية، ولظلمة شوارعها، وعدم وجود بوابات للمدينة، مما أثر على الناس وجعل أمن التجارة والحجاج ملقاة عليهم.[108]

وقد كانت تجمعات الأعراب الذين يقيمون على طريق الحج تزرع في نفوس الحجاج الرعب، ولم يكن ذلك عن قصص يسمعونها بل أحداث شاهدوها وعانوها، ومنهم من يسلم الروح ليكون هو موعظة لا واعظاً، ويقابل ذلك تراخ من الدولة العثمانية في بعض عهودها، وسوء تصرف من شريف مكة في اعطاء المستحقات المالية التي تصرفها الدولة للأعراب رجاء دفع بلائهم عن الحجاج. [109] وكان أشد الأذى الذي يصيب المسلمين منهم هو نهب القوافل واخافتها، حتى جعلت الدولة العثمانية لتلك القبائل مخصصات لمنعهم من التسلط على القوافل وكل ذلك لم يجدي، فحيلهم كثيرة في نهب الحجاج وإخافتهم، "وهؤلاء البدو يقطنون الجبل، وعندما يحين موعد مرور القوافل المتجهة إلى مكة ينزلون من الجبل ويكمنون بقصد نهبهم"[110].

وكما أن لدى البدو أخلاق كريمة مثل إكرام الضيف، والشجاعة والإقدام، والموت في سبيل قضيتهم، فبعضهم مع ذلك قساة يحللون في الحرب ما قد يُعد مسلكاً غير نبيل في غيره، وعند بعضهم

---

105 **كاي أونبيري، عاشق الصحراء جورج أوغست والين**، ترجمة مارية باكلا، (500).

106 ينظر: هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**،(323/1).

107 ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (258)، وينظر: **ريزفان، يفيم ريزفان، الحج قبل مائة سنة**، (206).

108 ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (103).

109 ينظر: ريزفان، يفيم ريزفان، **الحج قبل مئة سنة**، (72-71).

110 رحلات فارتيما، (36). وينظر: بيرين، جاكلين بيرين، **اكتشاف الجزيرة العربية**، (100).

بُعد عن التدين فهم لا يصومون ولا يقيمون الصلاة، وبعضهم إسلامهم نسبي، والحجاج يعدونهم همجيين، ولديهم من المواقف معهم ما تستوجب كرههم والخوف منهم.[111]

وقد وجد الأتراك أمام هذا التحدي أن دفع المال لشيوخهم أفضل الحلول نظراً لصعوبة مهاجمة مواطنهم لقلة الماء ومخاطر دخول الصحراء الوعرة على أكثر الجيوش عتاداً، ومع ذلك فقد كانت تلك الطريقة تجد طريقها للفشل بسبب تأخر مستحقاتهم أو أخذ شريف مكة لها، أو نكوص أولئك الأعراب عن تعهداتهم. [112]

وقد بقيت مشكلة الإعراب مثار قلق مما جعل بعض الرحالة يقترح لأجل ذلك كثرة النقاط للجيش في طريق الحجاج وتقاربها، على أن كل ذلك الخطر قد تلاشى ولله الحمد بعد دخول الحجاز في حكم الملك عبد العزيز– رحمه الله–.[113]

لقد أثرت أعمال النهب والسلب التي تجرأ بها الأعراب على الحجاج الذين قدموا من كل فج عميق في النظرة إلى المسلمين في مكة وبلاد العرب، وقللت من وصول تأثير الحج بأبعاده الكبرى من روابط الأخوة الإسلامية، والمحبة في الله، وارتباط المسلمين ببعضهم كثيراً، حتى قارن بعضهم بين حال العدل والأمن الذين يعيشون فيه تحت حكم المستعمرين والخوف والفساد الذي يلقونه في بلاد المسلمين، فبعض حجاج الدول الخاضعة لروسيا يقول المجرمون في روسيا لا يتخلصون من العقاب مهما دفعوا من النقود، أما في الحجاز فسلطة القبيلة والمال تؤثر في ذلك، فأي فساد كبير جره البدو الأعراب على الإسلام وأهله.[114] لكن هذا الحال لم يكن ضربة لازب، بل نعمت الجزيرة العربية بنعمة الأمن والسلم بين قبائلها في عهد الملك عبد العزيز — رحمه الله —كما يذكر ذلك الرحالة "فيلبي"، والذي حج مع الملك ولم يعد للخوف من الأعراب أو غيرهم أي وجود بعد ذلك. [115]

المطلب الثاني: دخول الثقافة التركية إلى مكة

دخل إقليم الحجاز في سلطان الدولة العثمانية بعد انتصار السلطان سليم الأول على مماليك مصر سنة: 922هـ، وأرسل شريف مكة ابنه وولي عهده أبا نمي ليجدد البيعة للسلطان العثماني، الذي أقر الأشراف على سيادتهم السياسية على الحجاز، وبعد ذلك العهد تجدد لدى العثمانيين الكثير من

---

111 ينظر: وافل، آرثر جون وافل، **رحلة الحاج المعاصر**، (82).

112 ينظر: المرجع السابق، (82-83).

113 ينظر: وافل، آرثر جون وافل، **رحلة الحاج المعاصر**، (195).

114 ينظر: ريزفان، يفيم ريزفان، **الحج قبل مائة سنة**، (228-226).

115 ينظر: جون فيلبي، هاري سانت جون فيلبي، **حاج في الجزيرة العربية**، (16).

التنظيمات للولايات العثمانية، وكان من ذلك إرسال والي تركي بصلاحيات تزاحم صلاحيات الشريف إلى الحجاز، وحدثت بينهم وبين أشراف مكة الكثير من التنافس، مما لم يكن في صالح الاستقرار الثقافي والأمني لمكة المكرمة، "فكل سنة قاضٍ جديد لا يعرف شيئاً عن ظروف الناس، وتقديم للمذهب الحنفي على المذهب الشافعي السائد في مكة"[116].

وقد كان دخول الحجاز في سلطان الدولة العثمانية صفحة مشرقة في تاريخ حمايتها للبلاد الإسلامية ضد الاستعمار الذي بات يغزو العالم الإسلامي، إلا أن ذلك لم يكن كافاً بدون أي تبعات ثقافية أثرت على تميز مكة واستقلاليتها الثقافية، فقد انتشر بين أهل مكة تعلم اللغة التركية، حتى أن بعض الصبية برعوا فيها ليحصلوا على العمل كمطوفين للحجاج الأتراك القادمين لمكة المكرمة. [117]

ومما عابه "بوركهارت" صراحة على أهل مكة تخليهم عن بعض عاداتهم، وتقليدهم الأتراك في لباسهم ومعيشتهم. [118] على أن الرحالة "بوركهارت" يتناول كل ماله صلة بالأتراك بنوع من النقد الشديد، إلا أن بعض النواحي في اللغة، واستخدام اللغة التركية، سيؤثر في الاستقلالية للثقافة المكية، فاللغة طرف متحيز للثقافة، لكن بسبب تركيز السلطات التركية على القوة المسلحة، وجهلهم باللغة العربية لم يكن التأثير التركي على الثقافة المكية عظيماً، رغم مرور القرون على حكم العثمانيين للحجاز، إلا أن ذلك لم يُبعد بعض تأثيرهم الثقافي كما سبق.[119]

وفي أواخر العهد العثماني وخصوصاً بعد دخول محمد علي للحجاز أصبح للوالي العثماني سلطة أعلى من شريف مكة، فلديهم سلطة مطلقة على الناس حتى لو ظلموهم ما داموا يؤدون دعماً مالياً منتظماً للباب العالي، ولم تحدث من قبلهم ثورات على الدولة، على أن فساد الحاكم الإداري يتبعه فساد من تحته من القضاة والعمال والجنود الذين تسلطوا على الناس في أموالهم وحاجياتهم، وانتشرت الرشاوى والمظالم. [120]

وفي أواخر عصور مكة المتصلة بالدولة العثمانية كانت تصدر في مكة جريدة الحجاز الأسبوعية، وتتكون من أربع صفحات نصفها بالتركية والنصف الآخر بالعربية، مما يؤكد الحضور الموازي للغة التركية بجانب اللغة العربية.[121]

وحين بدأ أعلام العهد السعودي الذي طوى فترة الحكم التركي للحجاز ظهرت الفروق بين عهدين

---

116 هورخرويه، سنوك هورخرويه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، (249/1).

117 ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (198).

118 ينظر: المرجع السابق، (187).

119 ينظر: ريزفان، يفيم ريزفان، **الحج قبل مائة سنة**، (115).

120 ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (214).

121 ينظر: وافل، آرثر جون وافل، **رحلة الحاج المعاصر إلى مكة**، (168).

وكأنهم مختلفين تماماً، ففي مكة كان الحكم العثماني يهتم بالأضرحة، والمزارات في مكة والمدينة، وتزيينها وإقامة المباني عليها، بينما كان العهد السعودي يزيل كل ذلك معتبراً أن ذلك الاهتمام من البدع الحوادث التي حذر منها النبي ﷺ، وفي يوم عرفة كان المشهد يظهر يه نوع من التنظيم الخاص وقت الخطبة حيث تتخللها طلقات المدافع، ومظهر قوة الجيش واستعداده، بينما في العهد السعودي تولت كل تلك المشاهد لتكون عرفة مكان عبادة وابتهال لا يلمح فيه المرء أي منظر لقوة دولة أو ترتيب يختص بها في وقت الخطبة.[122]

لقد كانت أقلام الرحالة تسطر كل سكنات وحركات الجنود الأتراك في الحجاز وتصف علاقة الرعب منهم، وهي علاقة مرة بأطوار متعددة، وأقلام الرحالة فيها الكثير من السموم بالنظر إلى المراحل المتغيرة التي مرت بها الدولة العثمانية في العلاقة مع دولهم ورعاياهم، فحيناً يكون الأتراك محل ثناء وأخرى محل نقد و تنقص من الرحالة، وكذلك حال العرب معهم، ففي بداية حكم الأتراك لم تكن العلاقة قد أصابها شيء من التوتر الذي حصل في حكم أواخر الدولة والتي ظلم بعض حكامها العرب، فأورث ردة فعل تمثلت في كرههم للأتراك ثم في قيام الثورات العربية ضدهم. [123]

المطلب الثالث: الدعوة الإصلاحية النجدية

يعد تأثر المجتمع المكي بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب من التحديات التي واجهت الثقافة المكية وغيرت في كثير من موروثها، لكنه كان تغييراً إيجابياً كبيراً؛ فقد دخلت الحجاز في حكم مكة في العهد الأول والثالث للدولة السعودية، وقد بدأ في أول الأمر أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مخالفة لما عليه أهل مكة، لكن حين نعلم أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب طلب العلم في مكة والمدينة، وأن شيوخه المكيين والمدنيين كان لهم الأثر البالغ في تكوينه العلمي ودعوته بعد ذلك، زال الكثير من التوهم الذي نشره المغرضون للدعوة في ذلك العصر.

ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم تأت بأمر بدعي لم تُسبق له، بل إنها جاءت بدعوة التوحيد التي دعا إليها الرسول ﷺ وأصحابه، وإزالة كل مظاهر الشرك التي انتشرت في بعض المناطق في الجزيرة العربية، ومنها مكة المكرمة.

وقبل مجيء الدعوة إلى مكة كانت للمزارات والقبور مشاهد واحتفالات خاصة، كما كان من الفساد الذي يقوم به بعض الأشراف الجرأة على أموال الناس فيبيعون الماء ومنه ماء زمزم في مكة بأسعار

---

122 ينظر: جون فيلبي، هاري سانت جون فيلبي، **حاجٌ في الجزيرة العربية**، (39-40).

123 ينظر: جيل- جرفيه كورتلمون، **رحلتي إلى مكة**، (55).

عالية.[124] فكانت البدع والمزارات تنتشر في مكة في العهد الذي سبق دخول دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب إليها، وكانت تؤدى تلك الزيارات للمشاهد على أنها عبادات تلحق بالحج، حتى قال الرحالة "علي باي العباسي" بعد إتمامه لمناسك العمرة: "وهذا المشهد الرائع كان يصحبه قديماً وقائع أخرى من العبادات والمحطات، أضافها علماء متعددون أو زهاد، لكن السعوديين ألغوا كل هذه الإضافات التي عدوها نوعاً من البدع والخرافات"[125].

فحين وصلت الدعوة النجدية إلى مكة كان إيذاناً بعهد جديد سياسي وعلمي، فتحولت تبعية الحجاز السياسية من إسطنبول إلى نجد، وتغيرت الكثير من المظاهر التي كانت في مكة، خصوصاً ما يتعلق بزيارة الأضرحة وتعظيمها، "وقد أمر سعود بهدم كل المصليات والقبب المقامة لأجل تقديس النبي ﷺ وأهل بيته، وهدم كل أضرحة الأولياء والأبطال التي كانت محل تعظيم وإجلال"[126].

كما تجدد النشاط العلمي وحركة الشراء للكتب، والاهتمام بالعلم وأدواته من الكتابة والقراءة، والتي كانت من المظاهر البارزة في مكة المكرمة بعد دخولها في حكم الدولة السعودية.[127] فكان للدعوة الإصلاحية أثرها الإيجابي في قيام النهضة العلمية في الحجاز، والتي تخلت عن كل ما يؤثر على صفاء عقيدتها، أو التعصب المذهبي.[128] "وقد تأثر أهل مكة بدعوة الشيخ محمد ين عبد الوهاب، وأظهر بعض المكيين إعجابهم بشخصية الإمام محمد بن عبد الوهاب، الذي استطاع أن يجعل من البدو الأميين مثالاً يحتذى في النظام والهدوء"[129].

لكن موقف تأثرهم الإيجابي بالدعوة لم يكن هو موقفهم الأول تجاهها والذي عُرف بالمعارضة لها في بادئ الأمر؛ نتيجة التشويه والإعلان المتكرر من قِبل حكام مكة بضلال تلك الدعوة، لكن الأمر اتضح للعلماء بعد دخول أنصار الدعوة إلى مكة، والاطلاع على كتبهم، والتعرف على أصول دعوتهم، "ومن المرجح أن الاحترام الذي عبّر عنه أهل مكة تجاه حكمهم القصير قد أثرَّ بمعظمه على كل حاج استفسر عن تلك الفرقة الجديدة"[130].

كما أن الحملة التي كانت قدمت لمواجهة الدولة السعودية الأولى خلفت آثاراً ثقافية وسياسية كبرى أثرت على مكة، فالفساد الذي أحدثه قادة الحملة في كل منطقة دخلها الجيش، والتضييق على علماء

---

124 ينظر: زيمة، البرخت زيمة، **شبه الجزيرة العربية في كتابات الرحالة الغربيين في مائة عام (1770م–1870م)**، (22).

125 ينظر: رحلة باديا، دمنجو باديا، **رحالة إسباني في الجزيرة العربية**، (175).

126 ينظر: المرجع السابق، (292).

127 ينظر: زيمة، البرخت زيمة، **شبه الجزيرة العربية في كتابات الرحالة الغربيين في مائة عام (1770م–1870م)**، (59).

128 ينظر: د. صديق، آمال صديق، **الحياة العلمية في مكة المكرمة**، (62/1).

129 هورخرونيه، سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة**، (281/1).

130 بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **ملاحظات عن البدو والوهابيين**، (370).

الدعوة وصل إلى حد قتلهم أو نقلهم إلى مصر، لكن ذلك لم يمنع من انتشار تأثير الدعوة في البلاد الإسلامية بعد ذلك.[131]

وحين خرج أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الحجاز، وهم قد أزالوا القباب التي على القبور، أُرسل من اسطنبول العديد من الحرفيين والعمال لإصلاح ما هُدم من القباب المنصوبة على قبور الأولياء بعد أن تم إرجاع الحجاز لسلطة الدولة العثمانية.[132]

لقد كان وصول الدعوة الإصلاحية إلى مكة إيذاناً بانتشارها والتعرف عليها في مختلف البلاد الإسلامية، عن طريق الحجاج الذين وفدوا إلى مكة في تلك السنوات القليلة من حكمهم للحجاز.

فكانت الأضرحة تنتشر في مكة في العديد من المناطق إلا أن الإمام سعود بن عبد العزيز أمر بهدمها بعد دخولها في حكمه حتى لم تبقَ بمكة قبة واحدة غير مهدمة، واختفت الطرق والأربطة الصوفية في عهد الملك عبد العزيز، وأصبحت مكة مكاناً لنشر العلم، والاهتمام بعلوم العقيدة، وتأثر بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الكثير من المسلمين من خارج مكة، فاجتماع المسلمين ببعضهم وأداؤهم لفريضة الحج أثّر على بقاء سلطة المستعمرين للبلاد الإسلامية، وكان باعثاً في المسلمين لروح الجهاد ضد أعدائه، حتى قال الرحالة "سنوك":"، ومن هنا نرى أن الحج عبارة عن قناة تجري فيها تيارات الحياة الإسلامية إلى أراضي جاوة".[133]

وفي الوقت الذي كان علماء المسلمين في جميع ولايات السلطنة العثمانية يصمون الدعوة الإصلاحية بكل سوء، ويعملون على تصوير الدعوة بأبشع الصور، وينسبون إليها مالا تقوله ولا تدعو إليه، كان للرحالة المستشرقين الذين شاهدوا آثار الدعوة وأجنادها في الحجاز رأي آخر، فقد صرحوا أن الناس ينسبون إليهم مالم يقولوه ولم يدعوا إليه، وحين حج الرحالة "علي باي العباسي"، وشاهد موكب الإمام سعود بن عبد العزيز — رحمه الله — سجل في مذكراته عن السعوديين بقوله: " والحقيقة تفرض علي أن أعترف أنني وجدت جميع الوهابيين الذين تحدثت إليهم على جانب من التعقل والاعتدال، وقد استقيت منهم كل المعلومات التي أوردتها عن مذهبهم، إن الناس لم يفهموا المعنى الإصلاحي لهدم المزارات وتقويض أضرحة الأولياء التي كان المؤمنون يؤدون لها واجب الإجلال، وقد كاد هذا الإجلال

---

131 ينظر: بيرسون، مايكل.ن. بيرسون، **الحج إلى مكة الخبرة الهندية (1500م–1800م)**، (61).

132 ينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، (159). وينظر: باديا، دمنجو باديا، **رحالة أسباني في الجزيرة العربية**، (283).

133 هورخرويه، سنوك هورخرويه، **صفحات من تاريخ مكة**، (656/2). وينظر: بوركهارت، جون لويس بوركهارت، **ملاحظات عن البدو والوهابيين**، (374). وينظر: د. صديق، آمال صديق، **الحياة العلمية في مكة المكرمة**، (246/1-247).

يتحول إلى نوع من العبادة التي لا تجب إلا لله وحده".[134]

فالرحالة الغربيون عاصروا نشأة الدعوة النجدية في مراحلها المختلفة، وكشفوا حقائقها لأوروبا حين كانت غائبة تحت غطاء التشويه والكراهية في البلدان الإسلامية المجاورة لها، وظهر بذلك الأثر الإيجابي على الثقافة المكية بسبب ووصول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إليها.

الخاتمة

أولاً: نتائج البحث:

1. المقصود بالتحديات الثقافية تلك المشاكل التي واجهها الناس في مكة وتأكد لنا ذلك بتدوين الرحالة لها في كتاباتهم، فكانت تشق على الناس، وتوثر في رفع ورقي المستوى الثقافي في مكة المكرمة.
2. كانت الرحلات إلى مكة ذات أهمية بالغة في بيان الحالة الثقافية لمكة، لما حوته من تصوير بديع عن التحديات التي كانت تواجهها مكة آنذاك، لاسيما الرحالة القادمون من الغرب.
3. لقد حظيت مكة المكرمة بعناية فائقة من الرحالة الغربيين من مختلف الجنسيات واللغات، اهتماماً لم يكن لغيرها من المدن، للتعرف على مكة وأسرارها، والتعرف على أحوال المسلمين وشعائرهم فيها.
4. تعددت التحديات التي واجهتها مكة من خلال رصد الرحالة إليها، بين تحديات داخلية وخارجية، منها تحديات علمية، وتحديات اجتماعية، وتحديات صحية، وتحديات خارجية ترجع للوجود التركي وثقافته، وكذا مواجهة الدعوة الجديدة للشيخ محمد بن عبد الوهاب.

توصيات الباحث:

5. يوصي الباحث المهتمين والباحثين والمؤسسات العلمية والثقافية بإيلاء تاريخ مكة المكرمة الثقافي المزيد من العناية لمختلف المحطات والمراحل المتتابعة.
6. كما يوصي الباحث المؤسسات المعنية بمكة المكرمة بجمع ما كتب عن واقع مكة المكرمة مما كتبه الرحالة في كتب الرحلات سواءً الغربيين المستشرقين منهم أو المسلمين أو العرب.
7. يوصي الباحث الباحثين من طلاب الدراسات العليا في الجامعات السعودية عموماً وجامعة أم

---

[134] دومنجو باديا، **رحلة إسباني في الجزيرة العربية**، (169). وينظر: بيرين، جاكلين بيرين، مقدمة الأستاذ حمد الجاسر لكتاب **اكتشاف الجزيرة العربية**، (9) ، (176).

القرى خصوصاً، البحث عن كتب الرحالة إلى مكة المكرمة لا سيما الغربيين، ودراستها والإفادة منها لصالح الواقع الثقافي لمكة اليوم.

قائمة المراجع

1. أرسلان، الأمير شكيب، **الارتسامات واللطائف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف**، مكتبة الثقافة الدينية، 2006م.
2. أورنبيري، كاري، **عاشق الصحراء جورج أوغست والين، حياته ومذكراته**، ترجمة: مارية باكلا، دار الكتب الوطنية هيئة أبو ظبي، الطبعة الأولى1433هـ .
3. باديا، دمنجو، **رحالة إسباني في الجزيرة العربية**، ترجمة: د. صالح بن محمد السنيدي، دارة الملك عبد العزيز، 1429هـ.
4. البخاري، محمد بن اسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ.
5. برينث، بيتر، **بلاد العرب القاصية**، ترجمة: خالد أسعد وأحمد غسان سبانو، دار قتيبة،1411هـ.
6. بوركهارت، جون لويس، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1413هـ.
7. بيرسون، مايكل ن.، **الحج إلى مكة الخبرة الهندية 1500–1800م**، ترجمة: أ.د. محمد خليفة حسن، دار كنوز المعرفة، الطبعة الأولى2001م .
8. بيرين، جاكلين، **اكتشاف الجزيرة العربية**، ترجمة: قدري قلعجي، تقديم: حمد الجاسر، دار الكتاب العربي.
9. ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، **اقتضاء الصراط المستقيم**، تحقيق: د. ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، الطبعة السابعة.
10. الجاسر، حمد الجاسر، **أشهر رحلات الحج1**، دار الرفاعي، الطبعة الأولى، 1402هـ.
11. الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، **صفة الصفوة**، دار الحديث، القاهرة، طبعة عام: 1421هـ، (1/139-144).
12. جون فيلبي، هاري سانت، **حاجٌّ في الجزيرة العربية**، ترجمة: أ.د عبد القادر محمود،

مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 1421هـ.

13. جون لويس بوركهارت، **ملاحظات عن البدو والوهابيين**.

14. جيل- جرفيه كورتلمون، **رحلتي إلى مكة**، ترجمة:أ.د. محمد محمد الحناش، مؤسسة التراث، الطبعة الأولى 1423هـ.

15. **جيوفاني فيناني حياته ومغامراته في جزيرة العرب**، ترجمة دار بلاد العرب، طبعة درا بلاد العرب، الطبعة الثالة،1435هـ.

16. أبا حسين، فهد بن سعد، **تصحيح المفاهيم حول إحياء أماكن الأنبياء والصالحين**، الطبعة الأولى، 1429هـ.

17. الحكمي، حافظ، **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول ي التوحيد**، تحقيق: عمر محمود، دار ابن القيم، الطبعة الثالثة، 1415هـ.

18. رتر، إلدون رتر، **مدينتا الجزيرة العربية المقدستان**، ترجمة: د. عبد الله نصيف، مركز تاريخ مكة المكرمة،1433هـ.

19. رحلات فارتيما، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب،1994م.

20. **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، طبعت الهيئة المصرية العامة للكتاب،1995م.

21. **رحلة علي باي العباسي رامون مايراتا، "مسيحي في مكة"**، ترجمة: رفعت عطفة، ورد للطباعة، الطبعة الأولى 1999م.

22. **روش، ليون، اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز**، ترجمة: محمد خير البقاعي، جداول للنشر، الطبعة الثانية،2014م.

23. ريزفان، يفيم، **الحج قبل مئة سنة**، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية.

24. زيمة، البرخت، **شبه الجزيرة العربية في كتابات الرحالة الغربيين في مائة عام 1770-1870م** ، ترجمة: د. غازي عبد الرحيم، شنّيك، طبعة مكتبة الملك عبد العزيز العامة،1419هـ.

25. السباعي، أحمد، تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، مطابع الصفا، الطبعة الثامنة 1420هـ.

26. سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**.

27. السيهلي، عبد الرحمن، **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، دار إحياء

التراث العربي، الطبعة الأولى، 1421هـ.

28. صديقي، آمال، **الحياة العلمية في مكة المكرمة**، مركز تاريخ مكة المكرمة، 1432هـ.

29. العساف، صالح، **المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية**، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ١٤١٦هـ.

30. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **هداية الساري مقدمة فتح الباري**، دار المعرفة طبعة عام: 1379هـ.

31. العياشي، عبد الله بن محمد، **ماء الموائد**، دار السويدي، الطبعة الأولى 2006م

32. الفاسي، محمد بن أحمد المكي الحسني، **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى 1421هـ.

33. ابن القيم، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، ، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، 1424هـ.

34. الكتاني، محمد عَبْد الحَيّ، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الثانية، 1982م.

35. كتبي، زهير محمد، **شخصية مكة المكرمة الجنسية**، دراسة أنثربيولوجية الأسماء الطبعة الأولى، 1421هـ.

36. ابن كثير، أبي الفداء أحمد بن إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**، دار طيبة، الطبعة الثانية، 1425هـ

37. كين، جون فراير، **ستة أشهر في الحجاز**، ترجمة د. إنعام إيبش، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقاة، الطبعة الأولى 1433هـ.

38. **مجلة العرب**، (مج3/17-4) عدد عام :1982م.

39. مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، **صحيح الإمام مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي.

40. ناظرين، د. بدر بن محمد أحمد، **التصوف في الحجاز إلى نهاية الحكم العثماني**، رسالة دكتوراه من جامعة أم القرى.

41. وافل، آرثر جون، **رحلة الحاج المعاصر**، ترجمة: ريم بو زين الدين، هيئة أبو ظبي